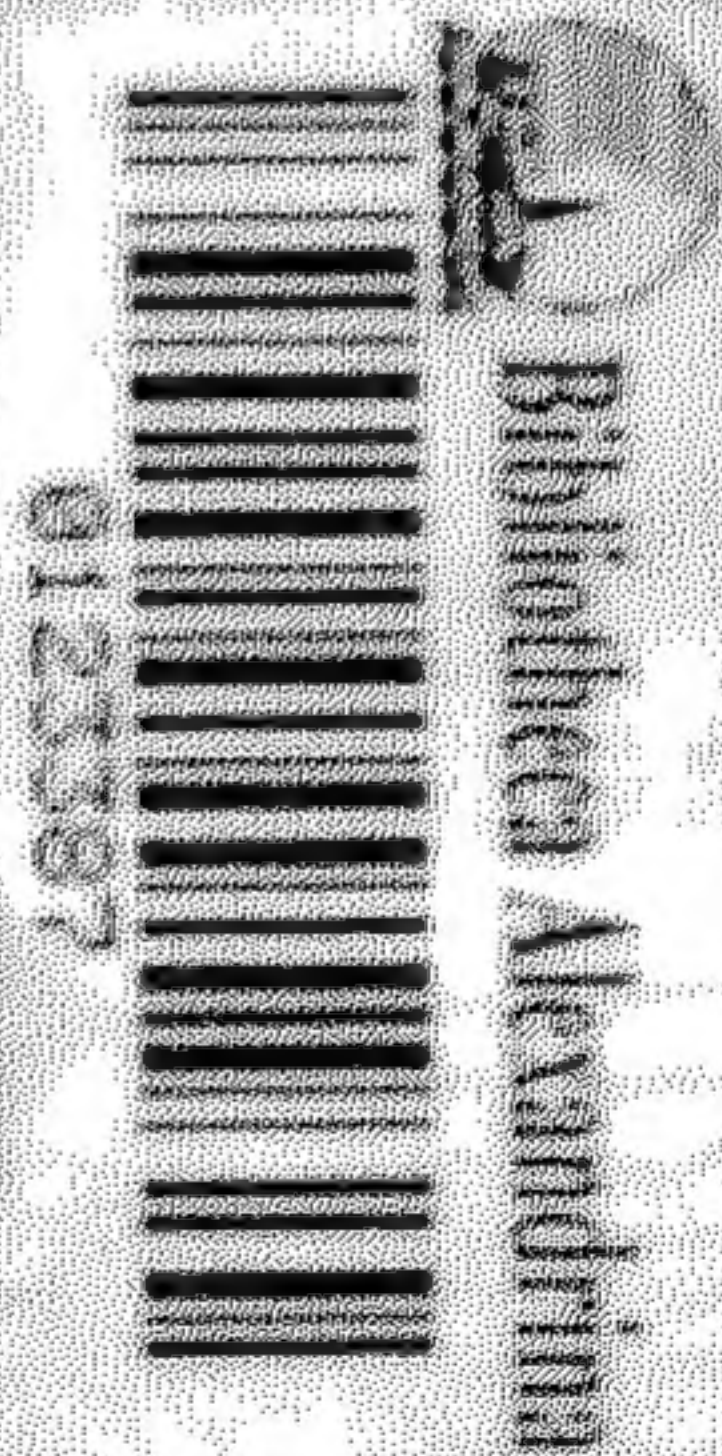


لشيخ محمد لغزالي

بَيْنَ النِّقْدِ الْعَائِبِ وَالْمَدْحِ الشَّامِعِ

تأليف

محمد جلال كيشك



مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية - القاهرة - ٢٠١١

الطبعة الأولى

لشيخ محمد لغزالي

بَيْنَ النَّفْدِ الْعَائِبِ وَالْمَدْحِ الشَّامِتِ

محمد جلال كشك

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

حقوق الطبع محفوظة

ولا يجوز طبع أى جزء من هذا الكتاب أو تخزينه بواسطة أى نظام
لتخزين المعلومات أو استرجاعها أو نقله على أية هيئة أو بأية وسيلة
سواء كانت إلكترونية أم أشربة ممغنطة أو غير ذلك ، أو أية طريقة
معلومة أو مجهولة إلا بإذن كتابى صريح من الناشر .



مَكْتَبَةُ الْإِثْرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

ت : ٣٩١١٣٩٧

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾

[٨٩ - الأعراف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة قبل الحوار وعنه

أصدر الشيخ محمد الغزالي كتاباً أسماه « السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » أثار فيه قضية قديمة ، قدم الكائدين والمارقين ومن في قلوبهم مرض ، قضية التشكيك في الإسلام من خلال الطعن في السنة ، بتصيد غرائب الحديث أو ما يظنونهم غريباً ! وكانت هذه الفتنة قد ثارت ، قبل ربع قرن ، فتصدت لها بكتاى « الحق المر » ثم عاجلتها كلما ثارت في كتابات متفرقة ، حتى فوجئت بكتاب الشيخ ، وراعنى المنهاج والاسلوب اللذان عاج بهما الشيخ قضايا ذات ابعاد خطيرة ، لا تخفى عليه . راعنى بالذات أنها تصدر من شيخ له مكانته عند العامة ، الأمر الذى يعطى لهذه الشبهات ثقلاً خاصاً كما هلل واغتبط كاتب صحيفة الشيوعيين ، الذى دافع عن احتلال الروس لافغانستان !

وقد قرأت الكتاب ووضعت ملاحظاتي على صفحاته وطويته وأنا كظيم . فلأسباب معروفة لم تكن عندى في ذلك الوقت فرصة ولا وسيلة لنشر رأى فيه . ولكن لله تدابير ، ولم يخطئ القصد من ، قال : « من أمسك باباً أعطاه الله مفتاحه .. » أو إن شئت فقل إذا أراد الله أمراً يسر له الأسباب . فقد فوجئت بصديق أو ابن عزيز لم أقابله من عشر سنوات ، يزورنى ويدعونى للكتابة .. ففعلت ونشرت ملاحظاتي عن كتاب الشيخ ، تأسيا بقوله في كتابه — الفتنة هذا : « وهناك قضايا لا يجوز فيها التساهل لخطورتها » .

وليس بينى وبين الشيخ حفظه الله وعافاه ، عداوة ولا خصومة ولا حتى متابعة ، هو كتب عنى وأنا فى العشرين ، وأنا لم أكتب عنه إلا هذه المرة . وأنا لم أدخل فى جدل مع شيخ إلا فيما ندر وعندما يصل الأمر إلى القضية التى لا يمكن السكوت عنها . وقديما قالوا : نحن نحب فلانا ولكن نحب الحق أكثر .. ولعل الذين قرأوا ما نشرته فى مجلة «المسلمون» قد لاحظوا اننى تلطفت فى مخاطبة الشيخ بكل ما يستوجبه أدب الحوار ، والاحترام . وأعترف اننى لم أكن أتوقع حوارا ولا مناظرة ، لأسباب لا تخفى عن الذين تابعوا ما كتبت ، والذين سيقراءون هذا الكتاب . ما توقعت أن يرد الشيخ ، وإن تمنيته !

ولكنى لم أتوقع أيضا أن يفعل إلى هذا الحد ، فيترك لبعض المنتفعين به استغلاله ، فيردون بأسلوب الغمز واللمز . بل الدس ومحاوله منعى من النشر فى البر والبحر !!

مفهوم أن يعلن الشيخ أنه لن يجادل . بل وإنه أغلق باب الاجتهاد أو الجدل فى كتابه ! ولو سكت عند ذلك ، لفهمت عذره ، ولربما قال الناس : رفض الجدل عن ترفع أو زهد ، ولكنه لم يفعل ، ولم يفعل أعوانه بل هرعوا يفتشون فى ملفاته أو ملفاتى فخرجوا لنا بفقرة من كتابى : «خواطر مسلم فى المسألة الجنسية» . نشروها للأسف بامضاء الشيخ ! و «خواطر مسلم فى المسألة الجنسية» هو الكتاب الذى تعرض من ست سنوات لمحاولة دس رخيصة عندما حرض كاتب كبير على مصادرتة ! وفعلا صدور الكتاب ، لأمر أراده الله ، فقد أصبحت للكتاب قضية ، وأحيل للمحكمة التى طلبت من شيخ

الأزهر انتداب لجنة لإبداء الرأى فيه ، فشكلها — جزاه الله خيرا — من علماء افاضل ، درسوا الكتاب وأصدروا رأيهم ببراءته من كل ما يخالف الدين . وعليه صدر حكم المحكمة بالافراج عن الكتاب وطرحه فى الأسواق ، وقد أعلنت عنه فى الصحف وبيع منه الكثير ومازال يباع وهكذا شاء ربك أن يكون هذا هو كتابى الوحيد الذى صدر بموافقة وقرار من الأزهر والقضاء معا !

وأنا أعلم يقينا أن الشيخ قد قرأ الكتاب وعلم بما فيه ، فلماذا سكت .. لماذا لم ينقض أو ينقد أو حتى ينبه .. لماذا سكت ست سنوات .. أليس من حق قارئ أن يقول عليه بأنه اختار دور الشيطان الأخرس طوال ست سنوات ؟! أم لعله ود أن يدهن فندهن ؟! فلما تكلمنا بالحجة والمنطق عبس وبسر وحرف القول عن مواضعه ! هذا هو السؤال الذى فات من نشرها بيان الشيخ . أما أنا فأعيد الشيخ أن يكون هذا منطقته ، وإنما هو ما فعله السفهاء باسمه شأن الدبة !

هذا كتابى متاحاً للخاصة والعامة ، والشيخ مسئول أمام الله والناس أن يتصدى لما يرى من خطأ فيه . وهو قد تصدى لتنقيح الصحاح وتطهيرها مما دس فيها ، كما يعتقد ! وهو يتعرض لما دون كتابى ، وهو قد اهتم بما فى كتابى إلى حد النشر عنه فى كل من جريدتى « الشعب » و « المسلمون » فلعله يتقدم لنقد الكتاب الذى أراد التشهير به ، فنتفع إن قال صوابا ، أو نرد عليه فينتفع الناس .. أما نشر فقرة وترصيعها بعلامات التعجب فلا يفيد رأيا ولا يحدد موقف ! وإن كنت أعترف أن الكتاب سابق لعصره عشرين عاما على

الأقل ومن يطل به العمر سيرا هم يقتبسونه ويباهون به الكتاب .
المؤكد ، على أية حال ، أن أحدا لم يجرؤ على نقده إلى اليوم . حتى
الشيخ اكتفى بنشر فقرة وسماها تفسيراً طريفاً للقرآن ، وهو تعبير
غريب ، أخشى أن يظنه من يختطفون القول تقریظاً للكتاب !

آثر الشيخ أن يعمل بالمثل القائل : « الباب الی یجیلک منه الريح
سده واستريح » فرفض الجدل .. ولكن هيهات ! لأن قفل باب الجدل
في كتاب الشيخ ، وما أثاره من جدل أو فتنة ، ليس بالقرار الذي
يصدر من جانب واحد ، وإن امتنع هو عن الجدل فلن ينال
السلامة ! وقدماً قيل من ألف فقد استهدف .. فما بالك بمن تعرض
لأئمة الحديث ؟! بل وللحديث ذاته ، فرفض ما لم يتفق مع فهمه أو
ما لا يتفق مع ذوق الأمريكيين والاستراليين !

وقد ناقشت أهم الاعتراضات التي أثارها الشيخ ضد الحديث
وعلماء الحديث ، وعارضت الشيخ في منهاجه الذي يحل مشكلة
الحديث الذي يستعصى فهمه ، أو ما شكك المستشرقون والكافرون
فيه ، يحل مشكلته ، بإنكار الحديث أو إسقاط قيمته مع الاعتراف
بصحته سنده ! وهو موقف قد يكون الشيخ مجتهداً فيه . ولكن ليس
له أن يلزم الناس به . وهو موقف لم يسبقه إليه أحد من شيوخننا بل
ويتعارض تماماً مع تاريخ الشيخ وما كتب كما قال بخت مادح الشيخ
في صحيفة الأهالي !

ولا يجوز مهما كان نفوذ الشيخ ومكانته عند الناس أو سلطانه أن
يسكت عما طرحه من آراء تفتح باب الجدل في قيمة الاسناد وعلم

الحديث والتاريخ . ولا أريد أن أستطرد فأشغل القارئ عن متن الكتاب ..

وقد ألح عليّ كل من قرأ ما نشرته في جريدة «المسلمون» أن أعيد نشره في كتاب ، والبعض خوفني من المنتفعين باسم الشيخ ونفوذهم عند السلطات هنا وهناك فزادوني إصرارا على نشر ما قلت في هذا الكتيب ، بعد أن أضفت إلى ما نشر ، بعض القضايا وفصلت ما سبق أن أجملت .

وإذا كنت قد عاجلت في هذا الكتيب ، أسلوب الشيخ في تناول مصادر السنة وكبار أصحاب الحديث ، واختياره — كما قلت — في محاجة المتطاولين على السنة ، أسوأ المواقف — في اعتقادي — ألا وهو إنكار الحديث أو التنصل منه .. وذلك كله مفصل في الصفحات التالية . فإنما أريد أن أشير هنا في عجالة إلى كلمة ثناء كتبها متعصب للشيخ يشد بها ظهره فقال : ان الفقه قبل الشيخ ، كان فقه دورة المياه ! حتى بعث الله في الأمين شيخا جاء بالفقه للحياة !! ولعلنا نذكر أن شعار الفن للحياة .. إلخ هو من شعارات الشيوعيين التي سَخَفْتُهَا أنا وهزأت بها قبل ثلاثين سنة وقلت ، فيما قلت ، ساخرا : حتى كتاب الموقى الفرعوني كان للحياة !!

قال : «ولفضيلة الشيخ طريقة معروفة هي أنه يُعطى القضايا الرئيسية في عصرنا الاهتمام والأولوية التي تناسبها ، ويغيبه أن بعض المنتسبين للدين ينصرفون عن هذه القضايا التي تهدد الأمة في وجودها ومصيرها ويهتمون بقضايا هامشية جزئية أطلق عليها الشيخ ساخرا

فقه دورة المياه للأمور الصغيرة التي يبددون جهودهم فيها» .
(الشعب ١٣/٣/١٩٩٠)

دعنا من السخرية بتراث نباهى به الأمم ، وغطى كل حاجات
الإنسان ، دعنا من التعريض بمنهاج الإسلام ، والجري وراء
المستغربين الذين يؤلفون الآن الكتب في اهتمام المسلمين بالاستنجاء !
وقد كان السلف الصالح الذين سيطروا على العالم في عصرهم ،
يقولون ، بفخر واعزاز : « كان رسول الله ﷺ ، يعلمنا الخراءة » :
« عن أبي بكر بن أبي شيبة عن سلمان قال : قيل له قد علمكم نبيكم
ﷺ كل شيء حتى الخراءة قال : فقال أجل لقد نهانا أن نستقبل
القبلة لغائط أو بول أو أن نستنجى باليمين — الحديث » وعن محمد بن
المثنى عن سلمان قال : قال لنا المشركون إني أرى صاحبكم يعلمكم
حتى يعلمكم الخراءة فقال أجل — الحديث » (صحيح مسلم —
باب الظهارة) وهناك الكثير من الأحاديث في آداب التبول والتبرز
والاستنجاء ، ولم تشكل هذه أبدا عائقا عن التحرر بل كانت من
صميم الإعداد النفسى والخلقى ، لهذه الحضارة المتميزة ، ومرة أخرى
اعذرونى ، فقد تذكرت محاورة بين ابنى وفتى أمريكى حول التخلف
والتقدم ، وكان ابنى (عمر) دون السادسة عشرة فقال له : تأمل ..
ان الإنسان الغربى يعيش فوق الأنهار وبلاده تمطرها السماء يوميا ومع
ذلك تستنجون بالورق ، ولم تتعلموا عادة الاستحمام إلا حديثا
جدا .. بينما المسلم فى الصحراء حيث الماء أغلى أحيانا من الدم ،
ولكن دينه علمه أن يستخدم بعض هذا الماء فى إزالة القدر ..

وتذكرت كيف كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يفتح فارس

وبيزنطة ، ويطوف في مكة يفتش على نظافة الشوارع ، ويأمر
أبا سفيان بالتنظيف أمام منزله ! هؤلاء الذين اهتموا بدقائق
السلوك ، غيروا تاريخ العالم ، حتى وصلنا إلى ابن احسان الذى
يسخر من فقه الوضوء !

ولست أدري هل قرأ هذا المدافع كتاب الشيخ !؟ وهل يستطيع
القول إن الاهتمام بعذاب الميت فى القبر ببكاء أهله عليه ، أكثر أهمية
للحياة ومشاكلها وللقضايا الرئيسية التى تهدد وجود الأمة
ومصيرها .. من نقائض الوضوء !؟

وإن جاز للشيخ — كما أخبرنا — أن يتهم ما كتبه الفقهاء والعلماء
فى نقائض الوضوء بفقه دورة المياه ، ألا يعطى ذلك الآخرين الحق فى
أن يصفوا فقه الشيخ بفقه المقابر !؟

هل مما يمس مصير أمتنا أن نتجادل وفى عنف حول القضية التى
أثارها الشيخ ودبج فيها الصفحات وأثار بها القراء وأضحك
المستشرقين ، وأعنى محضر التحقيق الذى فتحه حول ما حدث لعين
عزرائيل على يد سيدنا موسى !! ثم الجدل حول مبحث : هل يمكن
أن تفقأ أعين الملائكة !؟ أليس بحث الهالكين من سكان بيزنطة فى
جنس الملائكة أكثر جدية !؟

ألا يحق لنا أن نقول لفتى الشيخ :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وأخيرا وليس آخرا فأنا لم استسغ قول الفتى عن الذين يعلمون
فرائض الدين : « بعض المنتسبين للدين »

لا .. لا ..

هذا قول لا يليق !

بل هم رجال الدين ، هم الذين علموك الوضوء والاغتسال
وموجبتهما .. ولا ينقص من قدرهم أنهم لم يخوضوا معك في حديث
فقء عين ملك الموت ولا البكاء على الميت ولا نعيه !

غير أن فجيعتي تفاقت ، وخيبة أملى تضاعفت عندما لجأ المدافع
عن الشيخ لأسلوب رخيص في الدس والغمز واللمز .. انظروا ماذا
كتب :

« عاجل إلى علماء السعودية

فوجئت أخبار ممنوعة وهى تقرأ صحيفة « المسلمون » السعودية ،
بدفاعها الحماسى عن حديث الغرائيق أو حديث الآيات الشيطانية كما
سماه سلمان رشدى وهو حديث مكذوب يتضمن أن الشيطان ألقى
على رسول الله ﷺ آيات فيها مدح للأصنام . ولا ندرى ما وراء
هذا الدفاع المريب ولكننا ندرى أن سلمان رشدى سوف يسر به
كثيرا وربما اعتمد عليه محاموه فى القضية التى ينظرها القضاء
الانجليزى الآن . والكلمة الآن لأهل العلم بالسعودية ونحن نرقب
ردهم الذى سيحدد موقفهم من الافتراء الحقيقى على السنة النبوية .. »
(الشعب ١٣/٣/١٩٩٠) .

أشعر بالتقزز .. وأحتاج إلى ورقة أمسك بها هذا القبيح !
والغريب أن الجاهل الذى كتب هذا الكلام اختار نفس لفظ القرآن
لينسبه إلى سلمان رشدى .. فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وما
أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى . إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى

أمنيته .. فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴿ [الحج - ٥٢] .
القرآن كرر ﴿ ألقى الشيطان ﴾ مرتين ، ولكن كاتب البلاغ
لعلماء السعودية لا يعرف القرآن ولعله لم يسمع بالآية ولذلك يزعم
ويهلل أن سلمان رشدي هو الذي قال « ألقى الشيطان » .. يا عالم
هاتوا لنا حد يعرف الفرق بين الله سبحانه وتعالى وسلمان رشدي ..
وبين القرآن ورواية آيات شيطانية .. بئس ما لقنك الشيخ !
وتابع التدهور فعاد وكتب في نفس الصحيفة يقول : ان صحيفة
عربية دفعت لي مبلغا محترما لسب الشيخ .
بسيطة !

ولكن الذي كتب هذا الهراء ، فقد كل حياء عندما قال إن « هذه
الصحيفة معروفة بحقدتها على كل ما هو مصرى وسبق أن تناولت في
الصيف الماضي على عدد من أشهر الادباء المصريين .. للأسف بأقلام
مصرية استأجرتهم الصحيفة .. الخ » .
وهي كما ترى من روايته : صحيفة شريرة معادية لمصر والمصريين
لا يكتب فيها إلا من فقد الانتماء لمصر والمصريين . صحيفة مريبة
يكتب فيها امثال جلال كشك وتعطيه الكثير من المال .. ويرفع عن
الكتابة فيها الاشراف المؤمنون .. أليس ذلك هو عين ما يوحى به
الخبر ، بل وصرح .. معتمدا على جهل العامة بالصحيفة ،
وكتابها ؟

ما رأيكم أن هذه الصحيفة بالذات يكتب فيها الشيخ الغزالي
بانتظام بل هو أبرز كتابها وأعلامهم أجرا ؟! هل الكذب بهذا
الأسلوب هو خلق الشريف .. (لا أقول خلق المسلم ، فهذه قضية

انتهى فيها الجدل) حاشا لله أن يتسبب أو انسب للإسلام من إذا
خاصم فجر وإذا حدث كذب .. هذه الصحيفة يكتب فيها الشيخ
بانتظام منذ كانت ، وقد جمع مقالاته فيها ونشرها في أكثر من كتاب
منها كتاب «الحق المر» وهو يكتب فيها إلى الآن .. بل وبلغ من
نفوذه عند هذه الصحيفة ، واعزازها له ، أن منع نشر ردى عليه فيها
بعد أن هاجمنى في صفحتها الأولى .. بل واشترط أن امنع من الكتابة
فيها ، واستجابوا اعزازا له واعترافا بمكانته عندهم وهى التى اهتمها
الفتى بكل كريمة ، فى صحف مصر حيث القراء الذين يظنهم
لا يقرأون ما يصدر بالخارج لأن الصحيفة ممنوعة من دخول مصر !
هل من خلق الأشراف أن يغرروا بالناس ويفتروا على الحقيقة على
هذا النحو .. من يعصم الشباب عندما يرون خلافا فكريا ، تستخدم
فيه أخط الأساليب من الكذب والتزوير ؟

وعلاقتى بالصحيفة لم تبدأ إلا منذ ثلاثة أسابيع قبل نشر هذا
الكلام من صبية الشيخ ومع ذلك فالحق أحق أن يقال ، فهذه
الصحيفة لم تعرف بحقدها على المصريين بل كل الذى حدث أنها قد
هاجمت ، منذ فترة ، أدب الفراش الذى كان يكتبه احسان عبد
القدوس ، من طراز : «بصى للسماء وقولى تزوجتك» أو «وكأنها
تلبس البنطلون تحت جلدتها» الخ ما ارتكب احسان عبد القدوس فى
حق هذه الأمة ، وكل من فى قلبه ذرة من إيمان لا يجوز أن ينحاز أو
يغضب لقائل هذا الإفك ، مهما كانت قرابته . وكنا نتمنى أن
لاتأخذ الشيخ وتلاميذه الحمية لاحسان ، فنسمع منه ومنهم نقدا
للدور الذى لعبه احسان فى ميدان الأدب كما سمعنا مدحهم لدوره

السياسى . وهو ما لم يحدث للأسف ، ولكن ترحموا عليه . ولعل هذا سر الغضبة على حديث : « أبى وأبوك فى النار ! » قل : ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ [التوبة - ٨٠] هذا دون أى انتقاص من الدور أو الموقف السياسى الذى لعبه أو اتخذه احسان عبد القدوس .

بقى أن نقول فى كشف زيف المتقول ، إن هذه الحملة التى شنت على احسان وأدبه صدرت عندما كان مصرى يرأس تحرير هذه المجلة ، وهو المصرى الوحيد الذى رأس تحريرها فترة !! ولكن حقا إن العرق دساس !

وبعد ، فقد سمح الشيخ لنفسه بأن يقول أو تركهم يقولون عن ناقديه إنهم « يقضمون قدميه ! » ولن نهبط إلى هذا المستوى ، غفر الله له لن يجرمنا شئان قوم على الا نعدل وما غضبنا إلا لسنة رسول الله ورفضنا للطعن فى أئمة الحديث والتفسير ودعاة التوحيد الذين تصدوا فى ثقة العالم ويقين المؤمن لتفسير حديث الغرائق واتهامهم بإثبات ما وصفه بأنه « من وضع الزنادقة وأنه أكذوبة ، لم يضعها مستشرقون إنما وضعها ناس عندنا فقدوا الوعى والتقوى » فاختص نفسه بالوعى والتقوى ، وحرّم منهما ابن حجر وابن سعد والطبرى !! وقال لمبشر : « إنها من وضع آبائك أيها المسكين لا من عند محمد » وجعل علم ذلك عند « العلماء الراسخين » وأخرج من علمائه الراسخين ، من ذكرنا ، وأدخل نفسه !! وجلس مجلس الزاجر من البخارى ومسلم وابن حجر وابن حنبل بل ومتولى الشعراوى الذين أيدوا حديث السحر واتهمهم بأنهم نالوا من القمم ،

عنيت رسول الله !! على ما في ذلك من غمز في الآية الكريمة التي
أكدت أن موسى نبي الله قد سحر ..

مولاي ! لما انقلب منطلقك واصبح يسير على رأسه قضموا
قدميك !

وسأقول سلاماً لمحاولة إبلاغ السلطات عني بوصفي بأنني من
السلفيين وهم يعرفون أنها تهمة خطيرة في زمن خلف كجلد
الاجرب ، يعرفون موقف جماعتهم من السلفيين الذين نصبوني لهم
إماما .. نعم يعرفون فهم كثيرا ما يُستعان بهم في نهى الشباب عن
سلفيتهم !

حقا !

ماكان الله ليطل دم عبد القادر عوده وصحبه .. وهم أعلم !
وحقا ذهب الزبد جفاء وإن شربوا له الانخاب !
غفر الله لنا ولك وطهر قلوبنا ..

القاهرة

شعبان ١٤١٠ مارس ١٩٩٠

الفصل الأول

فى الامثال : « قل لى من هم أصحابك ، أقل لك من أنت » ..
وبقليل من التعديل يمكن أن نخترع مثلاً جديداً هو : « قل لى من
يصفق لك ، أقل لك ماذا فعلت أو قلت » .. وما كنت أحب أن
أكتب هذا عن شيخ فاضل فى مكانة الأستاذ الغزالى وعلمه ، ولا أن
أقول له : « ومن العلم ما قتل » وبخاصة أن للرجل عندى سالفه ، فقد
تصدى للرد على كتابى « مصريون لا طوائف » عام ١٩٥٠ ، وكنت
قد انتقدت فيه الإخوان المسلمين فأسرفت . ورد هو فأغلظ القول ،
ولعن الله اللجاجة ، فقد كشفت من سنى وسنه ما كان مستورا !!
فها أنا اعترف بأننى ألفت ، والغزالى نقد قبل أربعين سنة !

لقد صادف كتاب الشيخ قبولا ممزوجا بالدهشة ، من قطاع
واسع ، وبخاصة الشباب الحائر بين تمسكه بدينه وبين ما يفرضه
المتشددون المنبتون ، وهذه قضية أخرى عاجلناها وعالجها الكثيرون
منذ أكثر من قرن ، وكان فضيلة الشيخ من الذين عارضوا أسلوبنا
ورفضوه . أعنى الكشف عن جوهر الدين ، بعد إزالة تراب قرون
التخلف ، وما تسرب إلى الفكر الإسلامى والفهم الإسلامى من
انحرافات الحضارات وخزعبلات الديانات الأخرى ، وتبريرات أو
شطحات فقهاء عصور التخلف ، وهاهو كتاب الشيخ يثبت أن
الشباب أو نسبة كبيرة منهم يريدون طرح هذه القضايا التى تأزم
الحوار حولها والموقف منها فى السنين الأخيرة .. ونحن نعتقد أن

الشيخ في هذا الباب لم يأت بجديد ، بل سبقه الكثيرون ليس فقط في الزمن بل وفي الفكر .. فالشيخ يقدم رجلا ويؤخر أخرى .. كما سنرى . على أية حال لو أنه حماه الله ، ركز في هذا الجانب ، واستعان بالصبر في المحاجة والجدل ، لأصاب خيراً ولما احتاج الأمر منه ركوب المركب الصعب في تناول الأحاديث الصحيحة السند .. إلا أن الكتاب ، أيضا ، أثار عاصفة من الاستحسان والاعجاب في دوائر اتفقنا طويلا نحن والشيخ على الرية في كل ما تستحسن ، والشك في كل ما تصفق وتهلل له . ولعل خير ما نورده هنا هو كلمة محرر صحيفة الاهالي حريا لخطورة ما تعبر عنه وما اثاره كتاب الشيخ من آمال في نفوسهم . خيب الله ظنهم .. كان كاتبهم قد نشر صورة الشيخ وإلى جانبه صورة بالبدلة لعل عبد الرازق وكتب تحتها :

« الحملة المسعورة على الشيخ محمد الغزالي »

« بداية اقر اننى اختلف مع الشيخ محمد الغزالي في اغلب اطروحاته . وازعجنى الهجوم الظالم الذى شنه منذ شهور في الصفحة الأخيرة في جريدة الشعب على مفكر إسلامي مستنير نكن له جميعا وافر التقدير خاصة وان فضيلته استخدم الفاظا كنت أرجو ألا تصدر منه . »

ومع ذلك فأننى أرى أن الواجب يحتم على أن أقف معه مدافعا ضد الحملة المسعورة التي تقودها ضده جهات معروفة . ففى عام ١٩٨٩ وعن طريق دار الشروق للنشر صدر للشيخ كتاب بعنوان : (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) فيه قدر ملحوظ من العقلانية

والاستنارة وسعة الافق وشجاعة الرأي ويختلف كثيراً عن كتبه أو مقالاته السوابق ، ولقد اعتبرته والكثيرون معي ممن يرصدون تيارات الفكر الإسلامى بداية لمرحلة جديدة ومضيئة فى حياة الشيخ الفكرية ومن ثم استبشرت به كثيراً وتمنيت ألا يكون (بيضة الديك) فى نوعيته وان يستمر صاحب الفضيلة فى السير على هذا المنوال وأنه لو فعل ذلك فسيكون له نتائج طيبة لما له من وزن وتاريخ لا ينكرهما إلا جحود ولكن سدنة الظلامية وأعداء العقلانية وخصوم التنوير افزعهم ذلك المؤلف واقض مضجعهم فحركوا الكتبة (حقهم) فطفقوا يصبون عليه من المقالات والعواميد والتعقيبات وبلغت الكتب التى دبحت ردا عليه حتى الآن ثمانية ، والذى لاشك فيه ان طريق النقد بالمقالات والكتب والأحاديث طريق مشروع بل وحضارى راق ، وكان حظ الغزالي حسناً إذ اختاروه ، وليت خصوم أو قل اعداء أساتذتنا الكبار من امثال : حسين مروة ومهدى عامل وفاضل رسول قد سلكوه . والشيخ الغزالي له من سعة الافق ونفاذ البصيرة ما به يدرك أن هذه الكتب الثمانية وما قد يتلوها سوف تذروها الرياح وتبتلعها حنايا النسيان وتلفها طوايا الالهال ويظل كتابه وحده المرجع الذى يذكره الباحثون .

والتاريخ قديمه وحديثه تخبرنا صحائفه عن ذلك واقرب مثل مقدمه كتاب الشيخ على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) إذ على أثر صدوره الفت عدة كتب تلعنه وتهاجمه وبعد أعوام قليلة لم يذكرها أحد فى حين أنه ما من بحث جاد رصين أو اجازة دكتوراه أو رسالة ماجستير يكون موضوعها مدنية الحكم فى الإسلام أو أن الإسلام

دين ودولة كما يهرفون إلا وكان مؤلف الشيخ عبد الرازق على رأس قائمة المراجع رغم صغر حجمه وعندما يذكر الناس أئمة التنوير في العالم العربى يجيء الشيخ على عبد الرازق فى أول الصفوف .

ولكن من الذى يقف وراء هذه الحملة الضارية الموجهة ضد الشيخ الغزالى : يخطط لها ويحرك ترسانة الدعاية فى مصر والبلاد العربية وبعض بلاد الفرنجة عن طريق الصحف التى تصدر فى عواصمها بلغة العرب ؟

لنعرف إجابة هذا السؤال يتعين علينا أن نرد على تساؤل يسبقه : ما الذى قاله الشيخ محمد الغزالى فى كتابه ذلك واثار عليه كل تلك العواصف الهوج ؟ من الصعب أن نجيب فى سطور قليلة ذلك أن ما أورده صاحب الفضيلة فيه كثير ومديد ولكن فى رأى ان ما أوجع تلك الجهات بل اصابها فى مقتل هو قوله ان ما يشيع ويسيطر الآن على الساحة الإسلامية أو قل اغلبه ليس قواعد وأحكام الشريعة الإسلامية إنما تقاليد عبس وذبيان ونسى الشيخ فى غمرة حماسه لفكرته أن هؤلاء اصبحوا يمتلكون ذهباً يتضاءل بجانبه ذهب المعز وغدوا يتناولون فى البنيان وفى أشياء كثيرة لم يكونوا يحلمون بها مجرد حلم ورحم الله ايام رعى الغنم واستخراج اللؤلؤ !! وأنهم لا يسمحون لأحد حتى ولو كان فى مكانة فضيلة الشيخ الغزالى أن يعرض بأعرافهم القبلية خاصة وأنها الركائز التى يستندون إليها فى حكمهم العشائرى وفى استئثارهم بالثروات الاسطورية التى جاءتهم فى غفلة من الزمان يستأثرون بها دون المسلمين كما تنص الشريعة لا اعراف القبائل .

وبعد فإننى أرجو الشيخ الجليل ألا تفت فى عضده تلك الحرب
الضروس التى أعلنها ويعلنها أعداء التقدم وأعداء مبادئ الشريعة
الإسلامية الحقّة وإن يمضى فى طريقه الجديد الذى بدأه بكتابه ذلك
الشجاع الجرىء ، بل ويخلق حوله عددا من التلاميذ الأوفياء يقومون
بمنحاه الفكرى الحديث ويسيرون فى ذات الدرب — بعد عمره
المديد أن شاء الله تعالى — وبذلك يساهم ويساهمون فى قشع غيوم
الظلامية التى تملأ حاليا سماء الفكر الإسلامى . « حرفيا . الاهالى ٢٨
مارس ١٩٩٠ » .

وكنّت قد أبديت قلقى وضيقى مما كتب الشيخ ، ومن الثغرة
التى فتحها ، فتفضل بعض الإخوان وقالوا : ولماذا تحتفظ بهمك فى
صدرك ؟ لماذا لا تشرك الناس معك حتى يستبين الحق ؟ وقد علّمنا
أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » أن نعرف الرجال بالحق ، لا الحق
بالرجال . وقد انتقد الشيخ الغزالى أئمة فى الفكر والاجتهاد ،
لا نطمح لأنحن ولا هو حتى فى النسبة إليهم ، فما علينا لو قلنا للشيخ
حنانيك ، لا تكن علينا فى زمن تكسرت فيه الرماح على الرماح .
وبخاصة وقد صدر فى القاهرة كتاب ، نسب إلى كتابات الشيخ بعدا
خطيرا ، هو صدورها عن جهة أو تنظيم لمح عنه الكتاب وصرح بما
يشير المخاوف . والعجيب أننى سمعت بهذا التنظيم عندما كان مجرد
فكرة فى خاطر أحد المعارف الفضلاء ، الذى كان يتحدث عن
الرغبة فى مؤسسة تدافع عن السنة ، التى قلنا يومها ، إنها تتعرض
للتشكيك والتجريح وقد آن أن يُرد سهم الكائدين فى نحورهم . ثم
مضت الأيام وإذا بكتاب الشيخ هو « أشهر » ما يطالعنا منسوبة

فكرته إلى تلك المؤسسة ، وهو أشد نقد وجه للحديث والمحدثين !
وإن كان الشيخ قد برأهم منه وحملها وحده .

وللحقيقة فإن بقية ما اطلعت عليه من مطبوعات هذا التنظيم لا
غبار عليها ، بل ومعظمها في خدمة المسلمين . أما كتاب الشيخ
فحسبك منه أن مؤلفه رأى من واجبه بعد نشره ، تأكيد إسلامه
فقال في مقدمته : « وأؤكد أولا وأخيرا أنني مع القافلة الكبرى
للإسلام » .

بالتأكيد يامولاي .. ولكن ما أكثر الذين يسرون ويسايرون
ويتبعون ويقتفون أثر القافلة ، فالمهم أين موقعك وموقفك منها . هذه
هى القضية وقد كنا ولا نزال نريدك هاديا أو حتى حاديا لها فما
مثلك من يطوف بقرائه على جيف الفكر .. !!

ولعل الشيخ قد استراب في هذا الرواج الذى جعل كتابه يطبع
سبع طبعات إحداهن بالأوفست خلال عام واحد ، وهو ما لم يحدث
لأى من كتبه ، وهو بالقطع ليس خير كتبه .. فما السبب ؟!

الجواب فى اعتقادى ، هو أن الشيخ قد اختار ميدانا محببا
للمبشرين والكائدين للإسلام منذ قرون ، أعنى الطعن فى السنة
وتصيد غريب الحديث ، وإقامة قضية على ما يظنون أنه مناقض للعقل
أو العلم ، أو تتبع المتشابهات ، وهو داء قديم فى المنافقين والمنافقات
والذين فى قلوبهم مرض . نخذ مثلا هذا الذى احترف الكيد للإسلام
وتصيد ما يعتقد أنه يسبب الخرج للمستضعفين من المسلمين ! فهو
لا يكف عن الحديث فى سنن السيدة عائشة ، عندما عقد عليها للنبي
صلوات الله عليه وسلامه . وهو يدبج الصفحات حول حديث أو

بالأخرى رواية .. « رأيت أصحابه إذا تفل أو تنخم صلوات الله عليه .. الحديث » . وهذا فعل من يريد الفتنة .. إذ ما أهمية الجدل في صحة الحديث أو لياقته الآن وقد انتقل صلوات الله عليه للرفيق الأعلى ولا أحد يفعله لأحد اليوم ! وشهد الله لو بعث رسوله حيا لفعلائه راضين فرحين . فذلك نبي ، والناس لا يعرفون ، أو بالأحرى هذا الصنف من الذين يتصيدون هذه القضايا ويتقولون فيها ، لا يستوعبون حجم الحقيقة التي تتمثل في وجود نبي يتصل بالسماء ويعيش في نفس الوقت بين الناس .. إن هؤلاء الحمقى يقيسونه بزعم أو حاكم ! ومن ثم يستكبرون مسلك أصحابه ومعاصريه ! هذه قضية لا تخضع لمقاييسنا ، ولا تمثل أى تأثير على حياتنا ، وإنما يثيرها من يريد الفتنة ويسعى لها ، كبه الله على وجهه في الدنيا والآخرة .

والغريب أنه قبل أربعين عاما أصدر الأستاذ « خالد محمد خالد » كتابه : « من هنا نبدأ » وأقام جانبا كبيرا من دعواه ، فيه ، على تلك الأحاديث من طراز : نصفه ثلج ونصفه نار أو القضايا الفقهية في عصر الترف الفكرى مثل : « لو حمل قربة مملوءة فساء » الخ .. ونال كتاب « خالد » يومها شهرة تفوق شهرة كتاب الشيخ اليوم ، فتصدى له الغزالي في كتابه « من هنا نعلم » . تودار الزمان دورته وكان ما نحن فيه ، وصدقت مقولة : من عاير أخاه ولو برضع لبن كلبة لم يمت حتى يرضعها ! وصدقت خبرة الأسلاف عندما قالوا : العبرة بالخاتمة .

وكنت قد أصدرت دراسة حول الموقف من الحديث أو السنة وذلك منذ ٢٢ سنة فقلت إن علماء الحديث عندنا هم الذين أسسوا

علم التحرى والتمحيص، هم الذين بدأوا بمنهاج الشك قبل ديكارت وقبل الذين نقلوا عن ديكارت ثم ادعوا أنهم قد اكتشفوا كشف الفتوح العلا (مثل طه حسين) ! والغريب أن بعض الببغاوات ، لا يكتفون بترديد أكذوبة أن طه حسين أو غيره هم الذين اكتشفوا منهاج الشك وعلموه للمسلمين ، بل انهم يرددون أيضا أضحوخة ، أن ديكارت هو مكتشف هذا الفن أو منهاج وينسون أن شيوخنا الذين وضعوا علم الحديث هم أساتذة هذا منهاج .

فقد بدأ شيوخنا بالشك فى الرواية ، ومن ثم عرضوا الحديث لكل وسائل التحقيق والتمحيص والجرح والشك الممكنة ووضعوا لأول مرة ما يشبه WHO was WHO للصحابة والتابعين بحيث عرف ميلاد ووفاة وأمكنة وتواريخ وجود كل صحابى على أقرب وجه من الدقة ، لضبط صحة النقل عن رسول الله . وقلنا إن الحديث الغريب أو بالأحرى الذى يبدو غريبا لجيل بعينه ، لا يجوز أن نتخلص منه بالتشكيك فى صحته . وأقول اليوم إن أخطر أنواع التشكيك هو ما ذهب إليه الشيخ فى قوله إن الحديث : « لا قيمة له ، مهما كان سنده » !! (ص ٣٠) .

هذا قول عظيم تكاد تدك له الجبال دكا ، بل هذا نفي للسند كله . هذا قول يفتح بابا للفتنة شديد الخطورة ، لأن القول بإمكانية أن يكون هناك حديث صحيح السند فاسد المحتوى ، يعنى إما أن الرسول صلوات الله عليه يمكن أن يقول حديثا مخالفا للقرآن ، مخالفا للتعالم الإسلامية ، مخالفا للعقل والمنطق والذوق ! وهذه هى الأسباب التى اعتل بها الشيخ على الأحاديث التى أوردها ، وهو قول

باطل مخالف للدين بلا جدال . وإما أن يكون الحديث صحيح السند
ومكذوبا على رسول الله في نفس الوقت ! وفي هذه الحالة يسقط
الإسناد كله أو يتعرض لشك شديد واضطراب عسير مجابهته .

ومن حقى أن أفزع عندما أرى الشيخ يتساءل في استعلاء : « ما
قيمة حديث صحيح السند عليل المتن » .

ما كنا نظن أن القيمة تخفى على الشيخ ..

السند هو الحجة التي لا يجوز أن نتعامل معها بخفة أو بالهوى
والرأى . أما المتن فعلته تنبع ، من اعتراض فرد هو من ينسب له علة
فهى وجهة نظر فرد قابلة للنقد والتجريح أعنى العلة والتعلل ..

السند تحراه البخارى ومسلم ومن فى طبقتهما ، أما المتن فيتعلل
عليه أو يتعلل به من ليس يدانيهم علما ولا تحريا . ومن ثم لا يجوز أبدا
أن ننتقل من التساؤل والتشكيك إلى الإنكار فى استهتار فيقول :
« وكل متدبر للقرآن الكريم يدرك أن الحديث لاقيمة له ، مهما كان
سنده ! » (ص ٢٠) وتعجب هو ، وكما يقول العامة : « كان واجب
علينا إحنا » .. هذا تصريح بإنكار السنة كلها ، إنكار ما ثبت لإسناده
عن رسول الله بالسند الصحيح ، مادام يخالف فهم رجل ما فى زمن
ما ! يستطيع أى رجل فى قلبه زيغ أن ينكر طريقة الصلاة لأنها لم ترد
فى القرآن ويتكىء قائلا : الحديث عن الصلاة لاقيمة له مهما يكن
سنده ! على مذهب الشيخ ! الذى لا أعتقد أنه قصد ذلك أو خطر
بباله .. بل هو يقصد أن صحة السند لا تجعله ملزما ، ولكنه لم يوفق
فى التعبير لاعتبارات عدة منها أنه لا يريد أن يكون فى وضوح رشيد
رضا أو كاتبه اللذين قالوا بإمكانية الخطأ فى آراء الرسول البشر ، لأن

عصمته ﷺ ، هى فى إطار النبوة فقط .. خشى الشيخ أن يقول ذلك فوق فى ما هو أسوأ وأكثر فتنة للعامة مثل قوله : الحديث لاقيمة له مهما يكن سنده .. !

نعم ! قلت أنا من ربع قرن إن الحديث لأنه من اثبات البشر ، أى جمعه وإسناده ، فهو لا يتمتع بالكمال المطلق الذى يتمتع به القرآن ، ومن ثم فقد أمرنا بإعمال العقل بتمحيص الإسناد ومراجعته ، لاكتشاف قوته من ضعفه ، فإن ثبتت صحته وخالف منطق فهمنا أو ما أثبتته حقائق العصر أو اختلف ظاهر تفسيره عن تفسير نص صريح فى القرآن ، أخذنا بنص القرآن تاركين لزمن أكثر ملاءمة ، ولعلماء أكثر وعياً جبر هذا التناقض الظاهرى على ضوء ما يتكشف لهم . مثل حديث العسل الذى طالما تجادلوا فيه ، لأن حدود علمهم فى ذلك الوقت لم تتجاوز العسل ، ثم اكتشف العلم ، الغذاء الملوكى .. وهانحن نسمع هذه الأيام عن لدغ النحل الذى يشفى من وباء الكبد الفيروسي النشط !! فمن هذا الذى يضع حداً أو قيداً على العلم فيما يكتشفه من هذا الذى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ [النحل - ٦٩] .

قلنا إن الرسول عليه الصلاة والسلام كانت له صفتان : صفة الرسالة ، فى تبليغ الوحي ، وهذه لا تحتمل الخطأ ولا يجوز فيها اجتهاد ، أو اختلاف الرأى ، بل التسليم المطلق . وهناك صفة حاكم أو قائد ، وفى هذه يغنيا قوله : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وقد عرف القدماء أن الله قد بعثه نبيا وليس طبيباً مداوياً . وهنا يجب أن نفرق بين أحاديث العبادات مثل : « إن الميت يعذب ببكاء أهله » .. وبين

أحاديث الأسباب مثل التداوى بالعسل أو الذباب .. الحديث الأول لا يخضع للبحث العلمى لأنه من علم الغيب . وإن ثبتت صحة سنده صار اليقين به ملزما ..

وقال رشيد رضا : «ولكن الأحاديث الصحيحة ناطقة بأن النبى ﷺ لم يكن مستغنيا عن غيره من الناس إلا فيما ينزل عليه فيه الوحي وقال «أنتم أعلم بأمر دنياكم» رواه مسلم عن عائشة وأنس وقال : «ما كان من أمر دينكم فإلىّ، وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به» رواه أحمد ، وفي حديث رافع بن خديجة في صحيح مسلم أيضا أنه ﷺ قال : «إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» وهذا هو الموافق لقوله تعالى ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾ [الكهف - ١١٠] فهو متميز على البشر بالوحي إليه ولكنه فيما عداه بشر تجوز عليه الأعراض البشرية ، ويحتاج إلى غيره في الأمور الكسبية ، وكونه أكمل لا يقتضى أن يحيط بكل شيء علما ويقدر على كل عمل فإن هذا لله وحده : ﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك﴾ [الأنعام - ٥٠] . وقد استشار ﷺ أبا بكر وعمر رضى الله عنهما في أسرى بدر فاختلف رأيهما فقال «لو اجتمعنا ما عصيتكما» وكان رأيه موافقا لرأى أبى بكر فأنفذه ثم نزل الوحي بما يؤيد رأى عمر وهو قوله تعالى : ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض﴾ [الأنفال - ٦٧] .

من ربع قرن قلت : «إن ما يثبت لنا صحته من حديث رسول الله أو سنته ونعجز عن فهم حكمته أو لانجد له موضعا فى حياتنا

المعاصرة ، لا يجوز أن نتناول عليه بالحذف أو الإنكار ، بل نتركه
لجيل غير جيلنا ولزمن تتكشف فيه حكمته . لأنه لا حد لما يمكن أن
تكتشفه البشرية في تقدمها من قيم في سنة رسول الله . (الحق المر)
على أنى لم أجد حديثا يشق قبوله أو يتعارض تعارضا واضحا مع
واقع الحياة وضروراتها إلا وفي سنده مأخذ سجلها السلف .

والغريب أن الشيخ في موضع آخر من الكتاب اتفق معنا حرفيا إذ
قال : « وإذا وقع لفظ حول حديث ما فمداره : هل قال الرسول هذا
أم لم يقله ؟ .. ! فالكلام في صحة النسبة وفي ضمانات هذه الصحة
لا في جواز التقدم بين يدى الله ورسوله ، أو أخذ ما يعجب وترك ما
لا يعجب .. !! » (ص ٧٣) .. العجب من كثرة تعجبه من قوله !
والعجب الأكبر أنه لم يلتزم بهذا الموقف فقد اختار من الأحاديث ما
يحلوه ورفض ما استقبح أو ما رأى أنه لا يليق أن نواجهه الامريكان
والاستراليين به ! لم يهتم السند ولا بحث في النسبة لرسول الله بالمنهاج
الذى وضعه علماء المسلمين ، بل اعتمد على ذوقه وفهمه
واستحسانه ، فرفض حديث الآحاد والجماعة برأى الواحد . بل
أخطر من ذلك أنه جعل الحكم على صلاحية الحديث هو ذوق وفهم
وقبول الامريكان والاستراليين !!

ويبرر الشيخ هجمته هذه على السنة وعلماء الحديث في الصحاح
بأنه غيرة على « ديننا المكافح المشخن بالجراج » (ص ٨)
حاشالله ، ديننا لا تصيبه جراح فضلا عن أن تشخنه ، إنما الجرح
فينا نحن .. في عزائمتنا .. في تديننا .. في فهمنا .

ديننا هو الكمال المطلق ، منذ أن منّ الله علينا بتمامه ، والشيخ يعلم ذلك ، ولكنها كما يقول علماء النفس فلتة لسان ، لأن طبقة الشيخ قد خرجت من حصيلة الدعوة لما يزيد على نصف قرن مهزومة النفس .. الناس لا يتبعون دين الله ، كما يدعونهم إليه ، والذين اتبعوا هذا الدين ، ليسوا من تلاميذهم ولا شيعتهم بل العجب أنهم اختاروا من كل المتاح في الساحة ، ما ينتقده الشيخ بقوله : « سلفية مزعومة عرفت من الإسلام قشوره ونسيت جذوره » .

ولو تخلص الشيخ من ضيقه من المنبتين وحاول أن يفهم الشباب بسعة صدر العالم المؤمن ، لعرف أن اختيار الشباب له ما يبرره ، فلأن الشباب أظهر فطرة وأصدق حسا ، لجأوا إلى ابن تيمية لما دهمهم التتار من بين أيديهم ومن خلفهم ، ومن العدو العليا والسفلى ! شكوا في فقه السلاطين والسلطة ، وفروا من كل ما صدر بقهر التتارى أو ذهب المعز ..

والنتيجة أن هذا الجيل من الرواد ، يقلب كفيه ... فلا يجد ما كان يملؤه حماسة في مقتبل العمر وفتوته . والإنسان قليل الاعتراف بالتقصير ، يكره أن ينقد نفسه ، أو أن يعترف بعجزه ، ومن ثم فالجرح في الدين وليس في الداعية ! والجرح سببه هذه الأحاديث التى يتصيد بها الكائدون للإسلام ، فهب يشفى الدين من جراحه ! ولا تظن أن مبضع الشيخ قد اقتصر على علماء الحديث فقد امتد ونال الفقهاء ، فهو يقول : « ومع هذا فإن الشافعية والحنابلة أجازوا أن يجبر الأب ابنته البالغة على الزواج بمن تكره !! ولا نرى وجهة النظر

هذه إلا انسياقا مع تقاليد إهانة المرأة ، وتحقير شخصيتها » (ص ٤٢)
من الواضح أنه لا يعنى هنا علماء الحديث ، أو لا يعنيه وحدهم !
إنها نفثة مصدور ، وغضبة مقهور ، وأمنية عالم يتمنى الخير لأُمته
ودينه ولكن القى الشيطان فى امنيته ، ووقفت شياطين الانس ، من
أعداء الإسلام ، ترحب وتهلل وتدعوه لأن يكمل « الخطوة الأولى »
فيذهب معهم فى رحلة الألف ميل خاطئة ! ولكن هيهات .. إيمان
الشيخ ، بإذن الله ، أقوى مما ألقى الشيطان ، وسيقهر فتنهم ، ولعل
هذه الكلمات تعين الشيخ فى طرد الشيطان . وأيضا عز علينا يامولانا
وسط ضجة وصخب شياطين المحتفين ، أن نكون نحن الشيطان
المعترض ولكن تخرسه المجاملة !

فتنة الغرائق !

ويريد الشيخ أن يضرب مثلاً بالنكبات التي تجرّها علينا الأحاديث الصحيحة فيختار ما يظنه البعض الضربة القاضية ، وأعنى تلك القضية التي أثارها المعادون للإسلام من قرون وتجددت بكتاب سلمان رشدي ، يظنون أنهم القموا بها أهل الحديث حجراً فأوهن العجل قرنه !

أما نحن فنرى في قصة الغرائق مفخرة لإسلامنا ، مفخرة لعلماء الحديث والمفسرين وكتاب التاريخ الإسلامي . ولكن الشيخ يثيرها جازعاً فيقول : « ألم تر إلى ابن حَجَر شارح صحيح البخاري في كتابه الجليل فتح الباري الذي قال فيه العلماء بحق لا هجرة بعد الفتح ! إن الرجل على صدارته في علوم السنة قوى حديث الغرائق ، وأعطاه إشارة خضراء فمر بين الناس يفسد الدين والدنيا ، والحديث المذكور من وضع الزنادقة ، يدرك ذلك العلماء الراسخون ! وقد انخدع به الشيخ محمد بن عبد الوهاب فجعله في السيرة التي كتبها عن رسول الله ﷺ ، والشيخ هو من هو غيرة على عقيدة التوحيد ودفاعاً عنها .. ثم جاء الوغد الهندي سلمان رشدي فاعتمد على هذا الحديث المكذوب في تسمية روايته « آيات شيطانية » (ص ٢٠) .

على رسلك يا شيخ ! والله ما أخطأ ابن حجر ولا انخدع الشيخ ولا أفسدت حكاية الغرائق ديناً ولا دنياً ، ولكن نحن فسدت ديناً وفسد تديننا لما انحط فهمنا ، وأصبنا بالهزيمة في نفوسنا أمام عدونا ، قبل أن نهزم في ساحات القتال وأصبحنا نحسب كل صحيحة علينا ،

ونتخاذل أمام هجومهم وتعصبهم فنفر إلى تكذيب الحديث .. لماذا لم ينهزم السلف من علماء الحديث والتفسير والتاريخ ، ولا شكوا في دينهم وهم يثبتون حديث الغرائق ، ولا قالوا يا ويلنا ماذا ستقول عنا ، وعن ديننا ونبينا ، اليهود أو الروم .. ؟!

وقد ناقش ابن حجر الرواية من جميع جوانبها لاثميب ، ولا أخفى ولا تحيز ثم رجحها فبعد أن نقل تفسير ابن عباس : إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته «إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم آياته وصله الطبري من طريق علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس مقطعا» ثم قال : «وعن تأويل ابن عباس هذا يحمل ما جاء عن سعد بن جببر ، وقد أخرجه ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبي بشر عنه قال «قرأ رسول الله ﷺ بمكة والنجم ، فلما بلغ «أفرايم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ، فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم . فسجد وسجدوا فنزلت هذه الآية . وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة فقال في إسناده عن سعيد بن جببر عن ابن عباس فيما أحسب ، ثم ساق الحديث وقال البزار : لا يروى متصلا إلا بهذا الإسناد ، تفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور ، قال وإنما يروى هذا من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس انتهى . والكلبي متروك ولا يعتمد عليه ، وكذا أخرجه النحاس بسند آخر فيه الواقدي ، وذكره ابن اسحاق في السيرة مطولا وأسندها عن محمد بن كعب ، وكذلك موسى بن عقبة في المغازي عن ابن أبي

شهاب الزهرى ، وكذا ذكره ابو معشر فى السيرة له عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس ، وأورده من طريقه الطبرى ، وأورده ابن أبى حاتم من طريق اسباط عن السدى ، ورواه ابن مردويه عن طريق عباد بن صهيب عن يحيى بن كثير عن الكلبي عن أبى صالح وعن أبى بكر الهذلى وأيوب عن عكرمة وسليمان التيمى عن حدثه ثلاثتهم عن ابن عباس ، وأوردها الطبرى أيضا من طريق العوفى عن ابن عباس ، ومعناهم كلهم فى ذلك واحد ، وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإلا منقطع ، ولكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين أحدهما ما أخرجه الطبرى من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب حدثنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فذكر نحوه ، والثانى ما أخرجه أيضا من طريق المعتمر بن سليمان وحماد بن سلمة فرقهما عن داود ابن أبى هند عن أبى العالية . وقد تجرأ أبو بكر بن العرى كعادته فقال : ذكر الطبرى فى ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها وهو إطلاق مردود عليه . وكذا قول عياض هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده ، وكذا قوله ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فى ذلك ضعيفة واهية . قال وقد بين البزار أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره إلا طريق أبى بشر سعيد بن جبير مع الشك الذى وقع فى وصله . وأما الكلبي فلا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه . ثم رده من طريق النظر بأن

ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم ، قال ولم ينقل ذلك انتهى . وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد . فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلا ، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل وكذا من لا يحتج به لاعتضاده بعضها ببعض ، وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله « ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمدا ما ليس منه ، وكذا سهوا إذا كان مغائرا لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته . وقد سلك العلماء في ذلك مسالك .

فقل جرى على لسانه حين أصابته سنة وهو لا يشعر ، فلما عاد بذلك أحكم الله آياته . وهذا أخرجه الطبري عن قتادة ، ورده عياض بأنه لا يصح لكونه لا يجوز على النبي ﷺ ذلك ولا ولاية للشيطان عليه في النوم .

وقيل إن الشيطان ألجأه إلى أن قال ذلك بغير اختياره ، ورده ابن العربي بقوله تعالى حكاية عن الشيطان ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان ﴾ الآية [إبراهيم - ٢٢] قال : « فلو كان للشيطان قوة على ذلك ما أبقى لأحد قوة في طاعة » .

وقيل إن المشركين إذا ذكروا آلهتهم وصفوهم بذلك ، فعلق ذلك بحفظه ﷺ فجرى على لسانه لما ذكرهم سهوا . وقد رد على ذلك عياض فأجاد .

وقيل لعله توبيخا للكفار ، وقال عياض : وهذا جائز إذا كانت هناك قرينة تدل على المراد ، ولا سيما وقد كان الكلام في ذلك الوقت في الصلاة جائزا . وإلى هذا نحا الباقلاني . وقيل إنه لما وصل إلى قوله « ومناة الثالثة الأخرى » خشى المشركون أن يأتي بعدها بشيء يذم آلهتهم به فبادروا إلى ذلك فخلطوه في تلاوة النبي ﷺ على عادتهم في قولهم ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ ونسب ذلك للشيطان لكونه الحامل لهم على ذلك ، أو المراد بالشيطان شيطان الإنس .

وقيل : كان النبي ﷺ يرتل القرآن فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا نغمته بحيث يسمعه من دنا إليه فظنها من قوله وأشاعها . قال : وهذا أحسن الوجوه ويؤيده ما تقدم في صدر الكلام عن ابن عباس من تفسير « تمنى » بتلا . وكذا استحسّن ابن العربي هذا التأويل وقال قبله إن هذه الآية نص في مذهبنا في براءة النبي ﷺ مما نسب إليه . قال ومعنى قوله « في أمنيته » أى في تلاوته ، فأخبر تعالى في هذه الآية أن سنته في رسله إذا قالوا قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه ، فهذا نص في أن الشيطان زاده في قول النبي ﷺ لا أن النبي ﷺ قاله . قال : وقد سبق إلى ذلك الطبري لجلالة قدره وسعة علمه وشدة ساعده في النظر فصبوب على هذا المعنى وحوم عليه . اهـ (فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٢٩٢/٢٩٤ طبعة الريان) .

وسنجد أن الذين أخذوا بأسلوب الإنكار قد داروا حول ما قاله ابن حجر وهو : « ولكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا »

فحاولوا ايجاد التأويل وأغلبهم استقر على تأويل الطبرى الذى قال ان الكلمات من الشيطان ، وهو تأويل مطابق للنص القرآنى ، إلى حد ينفى عنه التأويل !

سيد قطب ، انكر ما ورد فى القصة ، وقال : «لقد رويت فى سبب نزول هذه الآيات روايات كثيرة ذكرها كثير من المفسرين . قال ابن كثير فى تفسيره : «ولكن من طرق مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح . والله أعلم» . وأكثر هذه الروايات تفصيلا رواية ابن أبى حاتم قال حدثنا موسى بن أبى موسى الكوفى ، حدثنا محمد بن إسحاق الشيبى ، حدثنا محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب ، قال : انزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير اقررناه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والبشر . وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله أصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ، فكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله سورة النجم قال : ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى﴾ .. ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال وانهن الغرائيق العلى وان شفاعتهن لهى التى ترتجى . وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته . فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة ، وزلت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، وقالوا : إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه .. فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم فى السجود فأما

المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين .
ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان فى مسامع المشركين ،
فاطمأنت أنفسهم — أى المشركين لما ألقى الشيطان فى أمنية رسول
الله ﷺ وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها فى
السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم ففشت تلك الكلمة فى الناس ،
وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين ..
فاقبلوا سراعاً وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان واحكم الله آياته وحفظه
من الفرية .

قال ابن كثير : وقد ساق البغوى فى تفسير روايات مجموعة من
كلام ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظى وغيرهما بنحو من ذلك ،
ثم سأل هنا سؤالاً : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله
تعالى لرسوله ﷺ ثم حكى أجوبة عن الناس ، من أطفها أن
الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك ، فتوهموا أنه صدر عن
رسول الله ﷺ وليس كذلك فى نفس الأمر بل إنما كان من صنيع
الشيطان لا عن رسول الرحمن .

وبعد أن نفى سيد قطب إمكانية حدوث ذلك وضعف الروايات
قال : « إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس ، يكون
أحب شئ إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا
الخير الذى جاءهم به من عند الله فيتبعوه . ولكن العقبات فى طريق
الدعوات كثيرة والرسل بشر محدودو الأجل ، وهم يحسون هذا
ويعلمونه . فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق .
يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من

عادات وتقاليـد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتا لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى .. ويودون مثلاً لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة ، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة ! ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية ، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات فرصة للكيد للدعوة وتحويلها عن قواعدها والقاء الشبهات حولها في النفوس ولكن الله يحول دون كيد الشيطان .. فيبطل الله كيد الشيطان ويحكم الله آياته .. فأما الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين فيجدون في مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق (الظلال ٢٤٣١/٢٤٣٣) وهنا اندفع سيد قطب رحمة الله عليه يهاجم المجموعة المهادنة لعبد الناصر — دون أن يسميهم — وهي المجموعة التي انشقت على الهضيبي وكانت السبب في تمزق الجماعة تحت ضربات عبد الناصر .

على أية حال ، لعلنا لاحظنا أن سيد قطب قد حوم حول تفسير ، يلقي الشيطان في أمنيته ، ففسره بما لم نبعد نحن عنه كثيراً . ولو كانت القصة مرفوضة من أساسها في قناعته ، ما كانت به حاجة لشرح رغبة الرسل في مجارة أو مهادنة قومهم ! وإلا فإن الآيات تتحدث عن أمنية ، مجرد أمنية بلا تحديد ، ولم تتحدث عن وفاق ولا مهادنة ، لكن الحادثة كانت في خاطر سيد قطب وملحة عليه فراح يفسرها حتى وهو ينفىها ! وهو عناء لا نرى ولا رأى السلف مبرراً له ولا حاجة إليه .

وتفسير القرطبي أنكر الروايات ولكنه قال : فيه ثلاث مسائل
قوله تعالى تمنى أى قرأ وتلا . والقى الشيطان فى امنيته أى قراءته
وتلاوته .. الأحاديث المروية فى نزول هذه الآية وليس منها شئ
يصح . وكان مما تموه به الكفار على عوامهم قولهم : حق الأنبياء ألا
يعجزوا عن شئ ، فلم لا يأتينا محمد بالعذاب وقد بالغنا فى عداوته ؟
وكانوا يقولون أيضا : ينبغى ألا يجرى عليهم سهو وغلط ، فبين الرب
سبحانه أنهم بشر ، ويجوز على البشر السهو والنسيان والغلط إلى أن
يحكم الله آياته وينسخ حيل الشيطان» وبعد ان عرض رواية الليث
ورواية الواقدي وإنكار النحاس وابن عطية له قال : « قال ابن
عطية .. ولا خلاف ان لقاء الشيطان إنما هو الألفاظ مسموعة ، بها
وقعت الفتنة ، ثم اختلف الناس فى صورة هذا اللقاء فالذى فى
التفاسير ، وهو مشهور ، القول ان النبى ﷺ تكلم بتلك الألفاظ
على لسانه وحدثنى أبى رضى الله عنه أنه لقي بالشرق من شيوخ
العلماء والمتكلمين من قال : هذا لا يجوز على النبى ﷺ وهو معصوم
فى التبليغ ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمع الكفار .. وقد
روى نحو هذا التأويل عن الإمام ابى المعالى . وقيل الذىلقى الشيطان
الإنس .. ثم أورد القرطبي رأى القاضى عياض فى كتاب الشفا .. وهو
أن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن
شئ بخلاف ما هو عليه ، لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا وغلطا .. » .

ولكنه عاد فقال « إنه بفرض أنه صحيح .. الذى يظهر ويرجح فى
تأويله على تسليمه أن النبى ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا
 ويفصل الآى تفصيلا فى قراءته ، كما روى الثقات عنه ، فيمكن

ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك
 الكلمات ، محاكيا نعمة النبي ﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من
 الكفار فظنوها من قول النبي ﷺ واشاعوها ولم يقدح ذلك عند
 المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحقيقهم من
 حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيها ما عرف منه فيكون ما روى
 من حزن النبي ﷺ لهذه الاشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة ، وقد
 قال الله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ الآية
 وعلق الإمام القرطبي : «وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا .
 وقال سليمان بن حرب .. «فأخبر الله تعالى أن من سنته في رسله
 وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى زاد الشيطان فيه من قبل
 نفسه .. فهذا نص في الشيطان انه زاد في الذي قاله النبي ﷺ لا أن
 النبي ﷺ تكلم به ، إلى أن قال وما هُدى لهذا إلا الطبرى لجلالة
 قدره وصفاء فكره ...» «ومن قال جرى ذلك على لسانه سهوا
 قال : ولا يبعد أنه كان سمع الكلمتين من المشركين وكاننا على حفظه
 فجرى عند قراءة السورة ما كان في حفظه سهوا ، وعلى هذا يجوز
 السهو عليهم ولا يقرون عليه ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية تمهيدا
 لعذره وتسلية له لئلا يقال إنه رجع عن بعض قراءته وبين أن مثل هذا
 جرى على الأنبياء سهوا ، والسهو إنما ينتفى عن الله تعالى ، وقد قال
 ابن عباس : إن شيطانا يقال له الأبيض كان ..» ثم ختم الإمام
 القرطبي كلامه بتعليق كنا نود أن نطرحه نحن كسؤال وهو قوله :
 «وضعف الحديث مغن عن كل تأويل والحمد لله (ص ٤٤٧/٦) ..
 نعم لماذا لم يغن ضعف الحديث ، القرطبي وغيره ، عن تأويله ؟!

أما ابن سعد وهو من الرواة والمؤرخين الثقات قال عنه ابن خلكان « كان صدوقاً ثقة » وقال ابن حجر : أحد الحفاظ الكبار الثقات « فقد أورد القصة هكذا في باب :

« ذكر سبب رجوع أصحاب النبي ، ﷺ ، من أرض الحبشة »

« أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني يونس بن محمد بن فضالة الظفري عن أبيه قال : وحدثني كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله ابن حنطب قال : رأى رسول الله ، ﷺ ، من قومه كفأً عنه ، فجلس خالياً فتمنى فقال : ليت لا ينزل عليّ شيء ينفرهم عني ! وقارب رسول الله ﷺ قومه ودنا منهم ودنوا منه ، فجلس يوماً مجلساً في ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم : والنجم إذا هوى ، حتى إذا بلغ : أفرايم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألقى الشيطان كلمتين على لسانه : تلك الغرائيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، فتكلم رسول الله ﷺ ، بهما ، ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعاً ورفع الوليد بن المغيرة تراباً .. فرضوا بما تكلم به رسول الله ﷺ .. فكبر ذلك على رسول الله ﷺ ، من قولهم حتى جلس في البيت ، فلما أمسى أتاه جبريل ، عليه السلام ، فعرض عليه السورة ، فقال جبريل (ما) جئت بك بهاتين الكلمتين . فقال رسول الله ﷺ : قلت على الله ما لم يقل ، فأوحى الله إليه : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لا تأخذوك خليلاً ، إلى قوله : ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾ .

« أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : فشت تلك

السجدة في الناس حتى بلغت أرض الحبشة ، فبلغ أصحاب رسول الله ، ﷺ ، أن أهل مكة قد سجدوا وأسلموا حتى إن الوليد بن المغيرة وأبا حيحة قد سجدا خلف النبي ، ﷺ ، فقال القوم : فمن بقي بمكة إذا أسلم هؤلاء ؟ وقالوا عشائرننا أحب إلينا ، فخرجوا راجعين حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار ، لقوا ركبا من كنانة فسألوهم عن قريش وعن حالهم ، فقال الركب : ذكر محمد آهتهم بخير فتابعه الملاء ، ثم ارتد عنها ، فعاد لشتهم آهتهم ، وعادوا له بالشر ، فتركناهم على ذلك .. فأتمر القوم في الرجوع إلى أرض الحبشة .. الخ (السيرة النبوية من الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٠٦) .

على أية حال هذا ما وصل إليه ابن حجر ، ليس وحده . كما يوحى الشيخ بل وكبار المفسرين والرواة في تمحيصهم للرواية ، التي كما نرى تناولها جل علماء المسلمين من الطبري إلى الجلالين ، وكلهم رأوا أنه لا بد من تأويلها رغم تضعيف بعضهم للسند لأنه كما قال ابن حجر لا بد في رواية تعددت مصادرها وشاعت حتى وصلت الحبشة ، وعبرت القرون ، لا بد أن يكون للقضية أصل ، حتى وصلنا إلى الشيخ الذي أنكرها تماماً ونسبها إلى الفاسقين من غير ذوي العلم ولا التقوى بل للمبشرين .. الخ .

فنقول له : وهب أنك نجحت في إخفاء رأسك في رمال التكذيب والتشكيك وحملتها لابن حجر ولعنت ولعنا معك سلمان رشدي ثلاثا فماذا تفعل يامولانا في صريح القرآن : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ ﴾ عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لا تأخذوك خليلاً . ولولا

أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً . إذا لأذقناك ضعف الحياة
وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴿ الإسراء - ٧٥ .

ماذا تقول الآيات بلسان عربى مبين ؟

تقول :

أوشك المشركون أن يفتنوا الرسول لينسب إلى الوحى ما لم ينزل
به الوحى ، ولو فعل ذلك لأحبوه وأعزوه واتخذوه خليلاً .. (ألم بهم
بها يوسف وهمت به ولاحظ أن القول الفصل استخدم نفس الفعل
« هم » .. ثم عصم الله من عصم) .

وسواء صحت الرواية بأنه صلوات الله عليه قال فعلاً أو هم
بالقول ، فإن الإغراء وقع والفتنة كادت .. والركون إلى باطلهم
أوشك أن يقع .. ثم عصمه الله لأنه معصوم فى أمر الدين .. ولو لم
يكن من دليل على نبوته ﷺ إلا هذه الواقعة لكفت برهاناً . فلو
كان القرآن من عنده ، وحدثت الواقعة فى جانبها العلنى أو لم
تحدث ، لاكتفى بحذفها وطواها النسيان . لأن هذه الآيات التى
انتقدته صلوات الله عليه هى التى جعلت المحدثين والمؤرخين
والكائدين يفتشون عن الواقعة ويضيفون إليها بعضاً من الحقيقة
والكثير من التخيل . لو كان هو الذى يؤلفه أو يفتره من عنده ، ما
كان أغناه عن هذه المشكلة من الأساس . فهذه الواقعة هى من أدلة
صدقه ، وإن القرآن ليس من عنده ، ولكن الانهيار الذى نعانیه يجعلنا
نرى السوء فى الحسن كل الحسن ، ونهزم بذات عوامل ومقومات
النصر !

ليس فى ديننا عورة ، ولست أناقش مدى صحة حديث (أو

بالأخرى رواية الغرائق ، فهي ليست حديثاً ، ولا بد أن الشيخ يعرف خطأ الوهم الشائع عند العامة إذ يظنون أن كل ما ورد في البخارى هو من كلام رسول الله نصاً ، والحقيقة أن به الكثير من رواية الصحابة عن أحداث شاهدوها ، فهو تاريخ موثق) لست أناقش تفاصيل الرواية وإنما أناقش القضية ذاتها .. أليس النبى بشراً عرضة لما يتعرض له البشر من ضعف وإغراء المصالحة والحرص على كسب أهله وعشيرته ، وتخفيف ما يعانيه أصحابه وهو الذى وصفه الله : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة - ١٢٨] .

فالرسول حريص على قومه يعز عليه عنتهم وما يجره هذا العنت عليهم من عذاب الآخرة ، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم يتألم لما يتعرضون له من تعذيب وتشريد ، فماذا عليه إذا تمنى الوفاق ؟ وما محمد إذا انقطع عن الوحي الا بشر يخطئ ويصيب . ألم يخرج الشيطان آدم من الجنة . ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ [البقرة - ٣٦] .

نقول تمنى محمد مصالحة قومه لينقذهم من غضب الله وليخفف عن أصحابه المستضعفين ما يعانونه من العذاب على يد المشركين .. والله يقول :

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ، إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته﴾ .

﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم ..﴾

﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ .

﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ .

﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ . [الحج : ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥] .
الله أكبر .. !!

والله لكانها نزلت الساعة في فتنة سلمان ومن أغواهم سلمان أو الذين أخرج إيمانهم فجور سلمان فراحوا يعاتبون ابن حجر أن قوى الشبهة عليهم ! ..

الله أكبر ! ماذا تعلمنا الآيات ؟

١ — ما من نبي إذا تمنى إلا ألقى الشيطان في أمنيته .

فما الجديد وما المثير وما المشين ؟

تمنى محمد مصالحة قومه وألقى الشيطان في أمنيته . بتفسير ابن عباس وبالتأويل الذي قبله الطبري أى في قراءته أو تلاوته . بصرف النظر عن الخلاف أو التخريج بأن الأمنية صدرت بصوت الشيطان أو على لسان النبي مع أن المسلمين الأوائل كانوا لا يشكون في عصمة النبي ، ولكنهم يسلمون في نفس الوقت ، ببشريته التي يجوز عليها ما قرره الله سبحانه وتعالى من حكم عام يشمل كل الأنبياء والرسل وهو استغلال الشيطان لأمنياتهم وإقائهم فيها وسوسته . وأغلب الظن أن علماء الكلام المتقدمين هم الذين جعلوا منها قضية بجدلهم في قضية

العصمة ، وربما تحت تأثير المناقشات مع المسيحيين الذين اعتبروا عيسى إلهاً كاملاً ، فكان بعض المتكلمين يحسون بالخرج في التسليم بنقص محمد ﷺ لأنه بشر ، مع أن هذا هو إعجازه ودليل صدقه !

٢ — وهنا تتدخل السماء فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم .. فتعصم السماء الدين وتناهى به عن الشك ، فلا يثبت إلا المحكم من التنزيل . وهو ما حدث ، ليس سرا ولا باخفاء الأمر ، بل علنا ، ويتلوه الناس أبد الدهر دليلا على العصمة القرآنية . هذه العصمة التي تفرضها السماء وتتابعها وتحفظها حتى من أخطاء الرسل البشر .

٣ — وهذا الذى وقع أو يقع من كل الرسل الأنبياء بلا استثناء بمنطوق الآية هو من تدبير الله سبحانه وتعالى ، ليكون فتنة للذين فى قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم ، نعم القاسية قلوبهم الذين يعجزون عن فهم حنان محمد الإنسان ورأفته ، فيتشائمون قائلين كيف يخطئ نبي !؟ كيف يرق قلبه للمشركين ، كيف تمنى مصالحهم !؟

قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة ! نعم يرق البشر بل وتعترية لحظات ضعف ، ويوشك أن يركن إليهم ولكن الوحي يعلم مصلحة الناس الحقيقية وأن اجبارهم على الحق الصريح هو الرحمة الحقة والدائمة حتى وإن مرت فترة انقسم فيها كل بيت على نفسه وتقاتل الاشقاء بل والآباء والابناء . الحق يعلم أن هذا الذى أنزله هو الرحمة الكاملة ، وأن ما يتعرض له بعض المسلمين بعض الوقت من العذاب والضيق ، هو الطريق للنعيم الخالد والسعة التى لا حد لها فى

الدنيا والآخرة ، فيحكم الله آياته ، فيمحو ما ألقاه الشيطان ويثبت القول الحق .

والآيات قد يفهم منها أيضا أن ليس للنبي أن يتمنى في الدين لأن هذا يفتح بابا للشيطان وإنما هو يصدع بما يؤمر فقط .

٤ — والنتيجة هي هذا الشقاق البعيد الذى يسقط فيه الظالمون بخلافهم وشكهم وتقولهم لعجزهم عن فهم حكمة الحادثة .

٥ — ولكن هذا الضعف من البشر الرسول وفي نفس الوقت الكمال الذى تفرضه العصمة الإلهية هما الحجة التى يعرف بها أهل العلم أنه الحق من ربك فتطمئن له قلوبهم . إذ لو كان من عنده لبقيت فيه وسوسة الشيطان ، وتصالح مع قومه وركن إليهم واتخذوه خليلا ولكن ذلك لم يحدث بل أحكم الله آياته . وكانت الحرب العوان بينه وبين قومه حتى حكم الله بينهما بالحق ونصر دينه . أو كما قلنا ؛ لو كان يفترية وغير رأيه لكم القصة كلها وما حاجته لهذه الآيات التى خلدت القصة .. لولا هذه الآيات لاندثرت الرواية تماما ، إما بوفاة من سمعها ، أو برفض المسلمين أية إشارة إليها والتنكيل بمن يذكرها إذ ليس لها — عندئذ — ما يعززها . ولكن القرآن ليس من عند محمد ، وهو لا يملك أن يغير فيه حرفا أو أن يكتم ما وجه إليه من نقد عندما عبس وتولى أو عندما كتم ما فى نفسه أو عندما تمنى !؟

فتأتى الآيات تدعم الواقعة ، وتثبت إيمان المؤمنين . لم يرتد مسلم واحد ، لا فى عصر النبي ، ولا فى ما تلاه من عصور ، أثبتت خلالها الحادثة ورويت ، وجادلوا فيها . ولم يشك أحد لعلو فهمهم وعمق إيمانهم ، حتى جاء جيل يشككه فى دينه مهرج هندی يليق بالسيرك لا الفكر !!

٦ — وقبل خمسة عشر قرنا أبلغنا المولى عز وجل أن الكافرين سيظلون في مرية منه حتى تأتيهم الساعة.. صدق الله العظيم .. مازالوا في مرية منه ..

٧ — وأخيرا .. أليس في الحادثة عبرة للذين يتجشأون القول اليوم بأنه لا مانع من إقرار الكفر حماية للوحدة الوطنية !! أو ما أطال سيد قطب رحمة الله عليه ، في استخراجه من خطأ مهادنة السلطة الكافرة !

رغم كل هذا الإعجاز في حادثة الغرائيق إلا أن الشيخ انزعج منها وفر من هولها — كما قال المتنبي — إلى تكذيب الرواية ونسبها إلى الدس !! « أكذوبة الغرائيق لم يضعها مستشرقون وإنما وضعها ناس عندنا فقدوا الوعي والتقوى » (الغزالي ص ١٩٤) أترأه يقصد بهذا القول ابن حجر والطبري والجلالين .. والآخريين الذين شكوا في رواية بعينها ولكنهم بذلوا الجهد في تأويلها ؟! أيمن أن يتهم شيخ وداعية هؤلاء القمم بفقدان الوعي والتقوى أو على الأقل بالغفلة الشديدة التي تجعلهم يشبتون ويؤكدون أو يقولون رواية بهذا الحجم والأهمية ، مع أنها لم تخف على الشيخ الذي عرف من مجرد النظر وعلى بعد خمسة عشر قرنا أنها فرية قوم افتقدوا الوعي والتقوى ؟! .. وكيف يكون لكل ما كتبوا أية قيمة بعد ذلك ؟!

وعاد الشيخ فهاجم كاهنا يثير قضية الغرائيق فقال : « إنها من وضع آبائك أيها المسكين لا من عند محمد .. فإن الله نزل على محمد هذه الآيات : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [الحاقة :

إن محمدا لا ينقل عن الله إلا الحق كما جاء في سورة أخرى :
﴿وبالحق أنزلناه وبحق نزل﴾ [الإسراء - ١٠٥] .

يبدو أن الشيخ يناقش تصورا بعينه للرواية .

أولا بالحق أنزلناه وبحق نزل .. حقا وصدقا . ما نزل هو ما في القرآن الذى ليس فيه كلمة واحدة محل شك . ونحن لدينا روايات ، لا أدري ما موقف الشيخ منها عن فاسق كان يكتب الوحي فيحرف في بعض الآيات وهذه أخرى من الأقايص التى استند إليها سلمان رشدى فى روايته ومن قبله عشرات الوعول التى حاولت أن تنطح صخرة الإسلام ، ولكن الذى تعهد بحفظ القرآن نبه رسوله لذلك ومحا أثر ما فعله الفاسق ، وقد كان جبريل يستعرض القرآن كل سنة مرة مع النبى ، تنزيلا بارادة المولى عز وجل فى النسخ والرفع وترتيب السور والآيات ، وتنفيذا لإعجاز الحفظ ، وتتبع لما هو من طبيعة الإنسان فى السهو وخطاء النسخ ، وحسبك من مراجعة يجريها جبريل ، فهو بالحق أنزله وبحق نزل . والغرائق ليست فى القرآن ولا نزلت من عند الله . وكما قلنا هى من أدلة مصداقية الحفظ ومصادقية التنزيل وإلا لما اكتشفت أو لما ذكرت على الإطلاق ، ولا ورد فى المصحف الآيات التى اشرنا إليها عن تمنيه ، وكدت تركز إليهم .

أما عن الآيات التى استشهد بها الشيخ ضد الكاهن .. «ولو تقول علينا لأخذنا منه باليمين» .

الرسول لم يتقول بل تمنى مثل كل الأنبياء والرسل كما جاء النص القاطع الذى استشهدنا به وفرق لا يخفى على الشيخ بين التقول ، وما

فيه من تعمد ، وبين إلقاء الشيطان في أمنيته أو على لسانه أو حتى في
خاطره .

وإذا جاز لي أن أتخيل لقلت إن الرسول الذي ، كما قلنا ، كان
يشغل باله مصير قومه ، من المشركين وصحبه من المؤمنين .. كان
وهو يتلو القرآن على نفسه ، يفكر في مخرج ، وفيما عرضه عليه من
مصالحة لو أنه اعترف بمكانة مآلهتهم .. وكما يحدث عندما يستغرق
الإنسان في التفكير والتلاوة معاً ، يحدث أن يفكر بصوت مسموع ،
فنطق هذه الأمنية التي ألقاها الشيطان في أمنيته ، فسمعها من لا يعقل
فظنها إعلاناً من محمد قرآناً أو بياناً فهرع يهنيء من يعنيه الأمر بل
وطار النبأ إلى الحبشة .. فالتفكير أو الأمنية حدثت ، والركون إليهم
أوشك أو كاد أن يقع ولو في الخاطر ، وبعض القول صدر ، ولكن
الرسول لم يتقول ، لم يقل لهم : هذا قرآن أنزل عليّ . ثم ما إن
تدخلت السماء حتى حسم الأمر وصدع الرسول بما أنزل عليه
وحفظ النص القرآني من تقول الذين اختطفوا القول ..

ثم إليك ما جاء في تفسير الجلالين ..

(تمنى/ قرأ، ألقى الشيطان في أمنيته/ قراءته ما ليس من القرآن مما
يرضاه المرسل إليهم وقد قرأ النبي ﷺ ، في سورة النجم في مجلس
من قريش بعد «أفرأيت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» - بإلقاء
الشيطان على لسانه من غير علمه ﷺ به : تلك الغرائق العلا وإن
شفاعتهم لترتجى ، ففرحوا بذلك ثم أخبره جبريل بما ألقاه الشيطان
على لسانه من ذلك ، فحزن ، فسلى بهذه الآية ليطمئن . فينسخ الله/
يطل ما يلقي الشيطان . ثم يحكم الله آياته/ يشتها . والله عليم/ بإلقاء

الشیطان ما ذكر . حکیم/ أى فى تمکینه منه بفعل ما یشاء . لیجعل ما یلقى الشیطان فتنه/ محنة . للذین فى قلوبهم مرض/ شقاق ونفاق . والقاسية قلوبهم/ أى المشرکین عن قبول الحق . وإن الظالمین/ الکافرین . لفى شقاق بعید/ خلاف طویل مع النبی ﷺ والمؤمنین حیث جرى على لسانهم ذکر آلهتهم بما یرضیهم ، ثم أبطل ذلك . ولیعلم الذین أوتوا العلم/ التوحید والقرآن . أنه/ أى القرآن . الحق من ربک/ فیؤمنوا به . فتخبت/ تطمئن له قلوبهم . وإن الله لهاد الذین آمنوا إلى صراط / طریق مستقیم / أى دین الإسلام . ولا یزال الذین کفروا فى مرية / شک . منه / أى القرآن بما ألقاه الشیطان على لسان النبی ثم أبطل . حتى تأتیهم الساعة بغته / أى ساعة موتهم أو القيامة فجأة . أو یأتیهم عذاب یوم عقیم / هو یوم بدر . لا خیار فیه للکفار کالریح العقیم التى لاتأتى بخیر ، أو هو یوم القيامة لالیل بعده .

صدق الشیخان .. فلماذا خبت قلوبهم وسقط الآخرون فى الشقاق والمرية ؟ !

ثم تعال إلى هذه التهویشة التى أثارها فتاه ، حول سلمان رشدى .. ترى من الذى يأخذ بمنطق سلمان ومن سبقوه ، ويعزز حجتهم .. نحن أم المذعور الذى یفر بإنکارها ؟

جوهر دعوى سلمان ؛ لأن محمد بن عبد الله تمنى وألقى الشیطان فى قوله فهو لا یمکن أن یمکن نبياً .. وجوهر ادعاء الشیخ هو نفس القضية ولكن بالمقلوب .. لأن محمد بن عبد الله نبى فلا یمکن أن تقع له هذه الواقعة ! فالشیخ سلم بفرضية سلمان ومن سبقوه .. وأنکر هو وقوع الحادثة بینما أید الآخرون دعواهم بكل ما أشرنا إلیه من

روايات الأقدمين ، الأرجح في أى ميزان عن الشيخ وفتاه .. وأهم من ذلك كله صريح الآيات .. فيسقط نفى الشيخ ويبقى تعزيزه للفرضية الكافرة .. فالشيخ إنما يعزز دعوى سلمان . أما نحن والسلف الصالح من قبلنا وصريح الآيات من فوقنا فتنسف هذه الدعوى تماماً لأننا ننطلق من قوله تعالى : لأنه نبى وقعت له هذه الواقعة . لأن النبى بشر فإذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ! وذلك قانون عام فى كل الأنبياء ، وهذا ما تثبته كل الكتب المقدسة .

شيخنا .. قد كان الظن بك أكبر من ذلك فحسبنا الله ونعم الوكيل ..

الفصل الثانى

إذا تتبعنا الكتاب الذى راج وذاع وتلقفته وطنطنت به دوائر لم تعرف - يوماً - بمحبتها للسنة ، فسنفاجاً بعبارات ما كنت أحب أبدأ أن تصدر عن الشيخ مثل قوله : «الدين البدوى» أو «وانتشر الفقه البدوى ، والتصور الطفولى للعقائد والشرائع .» أو «وقد بلغنى أن بدوياً ..» أو : «لسنا مكلفين بنقل تقاليد عبس وذبيان إلى أمريكا واستراليا ، إننا مكلفون بنقل الإسلام وحسب» .

فهذه التعبيرات شديدة الشبه بتخرصات المغرضين الذين يتحدثون عن فقه النفط وإسلام النفط والصحوة النفطية .. إلى آخر ما تخرصوا من مبتذل القول . لا يمكن أن يتحدث المسلم عن فقه بدوى وآخر حضرى ! وإنما هى قولة شاعر مقهور مغلوب أفحمته جزالة شعر منافسه فدافع عن نفسه بقولة : «هذا شعر حجازى مقرر لو تعرض لبرد الشام لمات !» ولا يليق أن ننقل هذر القول فى الشعر إلى الفقه والدين !

هؤلاء البدو هم الذين حملوا الدين للمدن والعواصم وحملونا عليه بسلوكهم وجهادهم .. والشيخ قد درس ودرّس ذلك فى ما سبق من عمره ، بل لقد بقيت بقية من هذا الحق فى ذاكرة الشيخ ، فهو يقول فى صفحات آخر من كتابه : «إن البدوى الذى يخاطب الفرس أيام الفتح الأول قال لهم : جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد .. ويعلق : «كان هذا البدوى بفطرته الصادقة يعلم ما هى الحقائق الكبرى فى المنهاج الإسلامى فيفتح البصائر عليها» .

صدقت ! فأين نقلك من قولك ..

تقاليد عبس وذبيان هى التى نشرت الإسلام فى ربوع الأرض
وجعلت أمثالنا يحلمون بنقله إلى أمريكا وأستراليا .. هم نقلوا ونحن
نحلم .

لأن تقاليدهم كانت أفضل وأقدر على حمل الحق والذود عنه .
انتصر الإسلام وعبر القارات ، لأن الذين حملوه للعالم هم أبطال
عبس وذبيان .. ووصلنا إلى ما نحن فيه لما خجلنا من تقاليد أسلافنا
الذين اختارهم الله من دون سائر البشر لنقل رسالته ..
وماذا تأخذ يا شيخنا على تقاليد عبس فى معاملة المرأة ، وتخجل أن
تطالع بها أهل أمريكا وأستراليا ؟ !

لحسن الحظ فقد حفظ لنا التاريخ اسم عبد وحببته عاشا فى بنى
عبس فى القرن السادس الميلادى ، فهل لديك اسم امرأة وشاعر من
عامة الناس ، لأقول فى أمريكا وأستراليا فى القرن السادس فما أنا
بالذى يسأل الناس شططاً ، ولكن فى بريطانيا ذاتها التى انبثقت
منها حضارة أمريكا وأستراليا .. هل فى تاريخ بريطانيا حتى القرن
التاسع عشر قصة حب بين أميرة أو نبيلة بنت سيد قومها ، وعبد أو
حتى حر ولكن من عامة الناس ؟

فى بريطانيا عندما خادن الجنائى ربة القصر فى قصة خيالية هى
«عشيق اللادى تشاترلى» التى نشرت فى القرن العشرين ، ذهبت
مثلاً وظلت مصادرة ربع قرن حتى لانتها قيم المجتمع البريطانى !

هل فى تاريخ بريطانيا قصة عبد نبغ بأدبه وشجاعته ، فنشر قصيدته على الكعبة وتزوج بنت سيد القوم ، وحفر اسمه على جبين الزمن يتغنى بسيرته وشعره بعد أربعة عشر قرناً .. ؟ أنخجل أن نحمل هذه التقاليد إلى استراليا ؟ !

اتق الله أيها المسلم ، كائنا من كنت ، واسترجع ثقتك بتاريخك ودينك وحدثهم عن عترة وعيلة .

ألا ترى يا شيخ ماجرتك إليه شهوة نقد البدو ، وخيلاء ادعاء التحرر من تأثير البدو حتى قلت مستنكراً « كأن الكرة الأرضية هي نجد وتهامة والحجاز !! » (الغزالي ص ٣٣) .

سبحان الله ! لو غيرك قالها ! نعم والله هي الدنيا : نجد وتهامة والحجاز .. هكذا رآها الله سبحانه وتعالى فاختارها لدينه ، واختار أهلها دون سائر الناس لاحتضان هذا الدين ونشره فى الدنيا ، فبعث فيهم النبى الأمى الأمين ، ولو شاء لنزله على رجل من القريتين عظيم أو لبعثه فى المدائن أو فى القسطنطينية أو فى الاسكندرية حيث الدنيا أجمل وأبهج وأبرح ، وحيث الحضارة أقدم . ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته .. ولو تأمل الشيخ ما نسبته لتأثير الحجاز ونجد على وضع المرأة ، لوجد أن هذا الذى أغضبه ، دخيل على حضارة العرب ويعود فى سائر منه لتأثير الأعاجم الذين لا ينتقدهم الشيخ بحرف ، أو للتخلف . وإلا فأين فى أى بلد أو عصر حتى القرن العشرين تجمع هذا العدد من النساء الخالدات الذكر ، مثلما تجمع فى جزيرة العرب عشية وفجر الإسلام . من عائشة التى أمرنا أن نأخذ عنها نصف ديننا إلى هند آكلة الأكباد . أين فى شتى الحضارات والعقائد ، تحققت

مكانة لامرأة مثل ماوصلت إليه ، عائشة رضى الله عنها .. هل فى الماركسية امرأة مثل عائشة فى الإسلام ؟ !

على أية حال لقد أثبت البدو أنهم أرحب صدراً وأقرب إلى أن يعدلوا فمنحوا الشيخ الجائزة !

ثم ما هذه الحملة على العرب التى يعرف الشيخ أنها نشطة فى هذه الأيام ، يردد دعائها كلمة حق يراد بها باطل ، وهى قول الشيخ إن الإسلام ليس ديناً اقليمياً لكم وحدكم ، إن لكم فقهاً بدوياً ضيق النطاق !! (الغزالي ص ٩١) .

وقد سمعت الشيوعيين والمتفرنسين من أدعياء الإسلامية، يحاربون تعلم اللغة العربية فى شمال افريقيا ، بدعوى أن الإسلام لم ينزل للعرب خاصة ، وليس من شروطه تعلم العربية ! وقد نشطت هذه الحملة فى السنوات الأخيرة وهبت علينا من حيث يعلم الشيخ . ومع ذلك فكتابه لا يرى نقيصة أو يسوء خلق أو مسلك إلا نسيه فوراً للعرب ! فالجلباب زى عربى ، والأكل عادة عربية ، والاستنجاء عادة عربية ..

ولست أريد أن أناقش هنا قضية القومية التى زاد فيها اللفظ أخيراً، وفاض وعم حتى بلبل وأكرب وجلبب الهم والغم .. لن أناقش الذين أصبحوا يهاجمون العروبة ويسخرون من القومية العربية ، ويستنكرون التعلق بالوطن أو مايسمونه التراب ! وهم يعملون عن وعى أو جهل لمصلحة قومية أخرى تريد القضاء على قوميتهم واستلاب أوطانهم !

يرتكبون نفس خطيئة الشيوعيين عندما جعلوا النظام أعز من التراب أو الوطن ، عندما وقفوا مع روسيا الاشتراكية ضد أوطانهم الرأسمالية أو عندما أيدوا إسرائيل «التقدمية» ضد أوطانهم وقوميتهم العربية «الرجعية» .

أقول ، ما كنت أرغب في مناقشة قضية القومية فقد قلت فيها وفي علاقتها بالدين مالا مزيد عليه وذلك في كتابي «القومية والغزو الفكرى» الذى صدر من ٢٣ سنة .. وإنما أضيف بعض ملاحظات بعد أن خاض الشيخ فى وحل التنكر للعرب فأقول :

إن إنكار القومية والزعم بأنها تتنافى مع الإسلام والسخرية من التعلق بالتراب ، دعوة توشك أن تفضى بالإسلاميين إلى مأزق شديد الخطورة .. نفس المأزق الذى سقط فيه الشيوعيون عالمياً وبالذات عربياً فى أزمة فلسطين ، عندما رجحوا انتماؤهم الأيديولوجى على انتماؤهم الوطنى أو جعلوا المذهب يتقدم على التراب .. فخسروا الاثنين .. وخرجوا بتهمة الخيانة التى مازالت تطاردهم إلى اليوم .

القوميات هى الحقيقة الراسخة فى تاريخ البشرية . وهى الأساس فى انقسام الناس إلى شعوب وقبائل ليتعارفوا ، وهى القوة المحركة لما يجرى اليوم فى العالم من أحداث نقف متفرجين عليها ، عاجزين عن الفهم ، تتربص بنا القوميات ، ونفزع نحن من تعاظم دور القوميات ، أما نحن فنتنكر أو ننكر قوميتنا ، تارة باسم الأممية الشيوعية ، وتارة باسم الأممية الإسلامية .

الإسلام لا يعادى ولا ينافر حقائق الحياة والتاريخ وإنما يرتفع بها .
فالإسلام يقر العربى عربياً والفارسى فارسياً . ولكن لا يرى فضلاً
لأحدهما على الآخر إلا بالتقوى .. الإسلام هو الفلسفة والروح
والرابطة والاطار والخلق الذى يحقق تعاون وتعايش القوميات فى ظل
وحدة حضارية تقوم على تعدد القوميات وتمنع تحولها إلى شوفينية أو
شعبوية متعادية .

الشوفينية هى التى تجعل أمتين عظيمتين ، صنعتا معاً واحدة من
أجمل صفحات التاريخ ، تجعلهما تتنازعان على اسم خليج .. أما
الإسلام فهو الذى لم يثر هذا الأمر لأكثر من ألف سنة بل جعل
العرب يسمونه الخليج الفارسى لأنه يفضى إلى فارس ، والعكس من
الجانب الآخر ، والإسلام اليوم هو الذى يمكنهما من حل هذا
المشكل بتسميته الخليج الإسلامى . ولكنهما لا يفعلان .

والقوميات لا بد لها من أيديولوجية أو صيغة حضارية تعبر بها عن
نفسها ؛ وكل قومية تلعب أو تطمح أن تلعب دوراً إقليمياً أو عالمياً ،
لا بد لها من رسالة أيديولوجية تعبر عن ذاتها وتخطب بها الآخرين فى
نفس الوقت .. وهذه الأيديولوجية قد تبدأ من قومية بعينها وتكون
فى فترة من الفترات معبرة عن مصالح هذه القومية ، ورسالتها
الحضارية للعالم ، والذى يحدث عادة هو تجمع عدة قوميات فى اطار
حضارى واحد يقوم على هذه الأيديولوجية أو الرسالة . وهذه
الرسالة تتباين فى الوسائل والأهداف والنتائج المتحققة . فهناك مثلاً
الأيديولوجية الامبراطورية حيث يجرى قمع القوميات الأخرى
لحساب القومية صاحبة الرسالة .. كما حدث فى الحضارة الهلينية

والإمبراطورية الرومانية والفارسية وروسيا الأرثوذكسية ثم روسيا الماركسية . والإمبراطوريات الغربية الأوروبية والأمريكية التي قامت على المسيحية الغربية ورسالة الإنسان الأبيض . أما في حالة الإسلام فقد قام «متحد» من نوع خاص لم ينف القوميات ولا استنكرها ، كما يتصور المشتبه عليهم ، وإنما اعترف بها ووفر لها كلها أقصى درجات المساواة الممكنة . وخفف حدة تصادمها وأثرى تفاعلها وأحل الفكر في تنافسها محل السلاح . فظهر التراشق بالشعر والنثر والتفاخر بهما ، كما حدث في مرحلة ازدهار الحضارة الإسلامية بين العرب والفرس فيما سمي في الأدب الإسلامي بالشعبوية .. أو التنافس في التفوق العلمي والفقهى واللغوي حتى يضع أعجمى ، قواعد اللغة العربية ، ويصبح أهم مرجع لحديث النبی العربی من وضع أعجمی ، ولا يجد عربی غضاضة في ذلك .

فالإسلام كان أفضل الأيديولوجيات في تحقيق الرسائل العالمية ، بما كفله من مساواة بين قومياته المتعددة وما وفره لكل قومية من فرص بعث وتنمية وتطوير لثقافتها الخاصة ، ولما تحقق في ظله من تفاعل وإخصاب بين هذه القوميات والثقافات في ثقافة إسلامية واحدة . حتى إنه يمكن القول بأن جميع هذه القوميات بلا استثناء قد مثلت في السلطة ووصلت على نحو أو آخر إلى أعلى مراتب هذه السلطة ، وحتى إن سائر القوميات التي فتح العرب بلادها احتلت حجماً في الحضارة الإسلامية ، يضارع إن لم يتفوق على حجم العرب .. ولا يجوز أن ينطلي علينا مكر الشعبوية الجديدة التي تهاجم حكم بنی أمیة بزعم أنه كان يمثل سيطرة العرب ويتنافى مع المساواة

التي جاء بها الإسلام .. تلك المساواة التي لم تتحقق أو ترجع - في زعمهم - إلا بسيف من كانوا يتنادون بذبح كل عرى جاوز الشبر !!

إن لعن بنى أمية أصبح مطية لكل ذوى الأهواء والأغراض . ودولة بنى أمية هي أبرز صفحات حضارتنا العربية ، وهي التي نشرت الإسلام في ثلاث قارات ، وإن لم تكن دولتهم بالتأكيد ، في طهارة ونبل حكم الراشدين ، ولكن تلك قضية بعيدة كل البعد عن تخرصات الشعوبيين الجدد .. وعن اتهاماتهم لبنى أمية بأنهم كانوا يعتمدون على العنصر العربى في حكم الدولة الإسلامية الشاسعة الأرجاء .. والتي لم تتوحد إلا في ظل بنى أمية .. ما أعجبه من افتراء ! لقد حكم بنو أمية مائة عام .. هي سنوات الفتح والاختضاع والتطويع ، فعلى من كانوا سيعتمدون في إقامة الدولة وفرض النظام الجديد .. على الطبقة المخلوعة التي كانت في السلطة بالأمن .. أم على العرب الفاتحين والحاملين لرسالة الإسلام ؟ !

هذه الطبقات المخلوعة حتى وإن قلنا إنها تخلت عن أحقادها وأطماعها في استرداد ملكها .. حتى لو قلنا أن هذه الأجيال الحديثة العهد بالفتح والهزيمة والاذلال قد شرحت قلبها للإسلام .. وأخلصت له .. ربما .. ولكنها لم تكن قد تشربت بعد ، روح مبادئه . وهي لو حكمت فإنها ستعيد أساليب الأكاسرة والدهاقنة ، ولكن باسم الإسلام .. الأمر الذى كان سيدفع رعاياها للثورة على الحكومة وحدها بل وعلى الإسلام ! كان الحكم العربى الأموى ضرورة من كل النواحي لاستقرار حضارة الإسلام ، وترسيخ قيمها ، وتألق هذه

القيم . وما ظهر في ظل الحكم الأموي من كفاءات ورياسات ، من غير العرب هو أصدق دليل ، على تهافت اتهام الأمويين بالشوفينية أو اضطهاد غير العرب .. وتذكروا من فتح أوروبا ؟ ! ثم حقيقة أن الموالى لعبوا الدور الأول في إسقاط الحكم الأموي .. كلها شاهد على أن غير العرب ماكانوا مضطهدين ولا مقهورين ولا ممنوعين من التطور والمشاركة في حدود الضرورات لدولة في مرحلة الفتح والاستقرار ..

أتمنى على غير ذوي الأهواء ، أن يراجعوا أنفسهم ألف مرة ، قبل الانسياق في الحملة على الأمويين ، وليسألوا أنفسهم : هل الحكم الذى قام بعدهم كان أفضل من حكمهم ؟ ! ألا يعنى هذا السب للأمويين ، نفى التاريخ الإسلامى كله إلا فترة الراشدين ؟ ! هل تخلى أحد عن مبدأ الوراثة في دولة العباسيين أو ماقام من دول الشيعة وشتى دول الإسلام ؟ !

لماذا ننسى أن أول من ورث الخلافة بعد أبيه هو الحسين بن على وليس يزيد بن معاوية ؟ !

كل هذا لا يمنعنا من القول بأن الإسلام في ظهوره كان معبراً عن مصالح واحتياجات الأمة العربية .. كان الإجابة الأكثر من ناجحة ، على التحدى الذى واجه هذه الأمة العربية .. ولعلنا نذكر أن النبى ﷺ قد وُلِد عام الفيل .. العام الذى واجهت فيه هذه الأمة العربية أخطر تحديات عمرها ، منذ أن وجدت إلى اليوم ، فلأول مرة – ولآخر مرة بإذن الله – يصل جيش معاد إلى مشارف مكة ويهدف

دك أقدر أقداها وأأرم أرماتها .. واء الانقاا العاأل فى مناقير
« طير أبابيل » .. واء الانقاا الأاام بمولاه صلوات الله عليه ، الأى لم يبعأ
الأطر الأبشى فأأب بل وأطر ساءامهم البيزنطيين إلى الأأ ، من
أزيرة العرب .. ولا نأى أن العرب أأ نصرأأ أيضاً فى صأامهم مع
الأرس فى واقعة « ذى أار » بركة رسول الله .. والأرسول هو الأى
أال ذاك .. « وى نصرأأ » .. لو أأأنا بمنطق إسلامى العصر
الأاضر ، لما فهمنا معنى أن ينصر مشركون يعأون الأصنام بركة
رسول الله ، على مشركين يعأون النار .. ؟ فما أأل رسول
الأوأىأ بأانصار أو هزيمة العرب المشركين ؟ أم كفار كم أير من
كفارهم ؟ ! وهل يجوز أن آساءل مسلم لماا يزهو الرسول صلوات
الله عليه بنصر الأراب أو العصبية الأاهلية ؟ ! أأأا الله ! وإنما هو
الأطن .. ولا عقىة ولا رسالة لمن لا يهم بمصير وطنه .. ولماا
لا أأل الرسالة الأير للأطن أول ماأأل ، ومنه ينبثق الأير للناس
أمىأاً ؟ !

والأأل لله .. فإن الأاريخ الإسلامى لم يتركنا هملاً يغرر بنا
الأاهلون .. ويغرر بهم الشعوبون الأأأ .. بل أأظ لنا الأاريخ من
وقائعه ما يهأى من يريد أن يهأى .. ففى غزو الأبشة لأزيرة العرب
كان الأحباش مسيأيين .. وكان العرب مشركين وثنيين .. وبالأالى
كان الأحباش على الأين الأقرب للصأة .. ورغم ذاك فإن أبا
رغال ، العربى الأى انضم للأحباش أأ قوم المشركين ، ماأنا
نرأم أيره إلى اليوم ، لأن أأانة الوطن كفر بواح ..

(أال ابن إسأاق .. فبعأأا معه أبا رغال يأله على الطريق إلى مكة

فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس فلما أنزله به مات أبو رغال هناك ، فرجمت قبره العرب فهو القبر الذى يرجمه الناس بالمغمس - من سيرة ابن هشام) ..

و كنت قد نشرت كتابى القومية والغزو الفكرى عام ١٩٦٦ وأعتقد أن الكثيرين من المثقفين الإيرانيين قد اطلعوا عليه .. فى ذلك الكتاب شرحت كيف يمكن أن يقوم الإسلام مرة أخرى بدور الباعث والمحرك والملهم للقومية .. وفيه قصرت حديثى بالطبع ، على القومية العربية ، فهى كانت مادة بحثى وموضوع اهتمامى .. واعتبرت نفسى مسئولاً عن سد ثغورها الفكرية .. وقتها قلت إن الإسلام هو جوهر القومية العربية والقادر على بعثها ، إذا ما اعتبره القوميون العرب تاريخياً جوهر حضارتهم ، ومستقبلياً جوهر رسالتهم الحضارية للعالم ، وعنصر اللقاء والتآخى بينهم وبين القوميات الإسلامية الأخرى .. كان كتابى أملاً منى فى أن يكون نظرية ومنهجاً للبعث العربى .. وكما يحدث دائماً عبر التاريخ فقد شهدت هذه النظرية وذلك المنهج تطبيقاً رائعاً ولكن .. على الجانب الآخر من الخليج .. فقد طبقه الإيرانيون بالنسبة لقوميتهم الفارسية فى محاولة بعثها وتحقيق ثورتها .. إن كل محاولات الشاه والمستغربين لبعث قومية فارسية على الطراز الغربى باءت بالفشل .. داخلياً وخارجياً . فلا كسبوا الجماهير أو المثقفين الإيرانيين ، إلى مشروعهم القومى المستغرب ، ولا استطاعوا توظيف الشيعة عربياً وعالمياً لخدمة الدولة الإيرانية .. بل على العكس كان شيعة العراق والمحرق أشد العرب عروبة وأكثرهم نفوراً من النفوذ الشاهنشاهى .. حتى تبنى

الإيرانيون الصيغة التي طرحتها أنا - عبثاً - على المفكرين العرب ،
ولكل أمر ميقاته ومكانه . قاتل الإيرانيون ثورتهم القومية تحت لواء
الإسلام .. فالتفت حولهم جماهير إيران وبذلت الدم في سبيل نجاح
ثورتهم ، كما كسبوا تأييداً في الخارج باسم الرسالة .. وساعدهم
وجود مذهب خاص بقوميتهم ، هو الإسلام الشيعي بصيغته
الصفوية .. وهذا المذهب اعتنق في إيران ، لمواجهة النفوذ العثماني
السني . ومن ثم فقد أعيد بعثه لتحقيق الثورة القومية الإيرانية . وقد
رأينا - ولم ندهش - مفكرين إيرانيين علمانيين ، بل أكاد أقول
ماركسيين ملاحدة ، ولكنهم شيعة ، يتبنون ويدافعون بحماسة عن
المذهب الشيعي وممارساته ، لأنهم وعوا أن المذهب هو الايديولوجية
لقوميتهم ورسالتها .

نجح الفرس في رفع لواء الإسلام الشيعي ، وقدموه على دعوى
القومية ، فنصروا الاثنان وفي نفس الوقت جندوا الايديولوجيات
لصالح القومية . واستطاعوا أن يقمعوا به الحركات الانفصالية في
إيران . فتلك القوميات لم تعد مجرد متمردة على الوحدة الوطنية ، ولا
حتى خائنة للوطن .. بل كافرة رافضة لحكم الإسلام .. تشاقق الله
ورسوله وتسعى في الأرض فساداً .. وحكم الله واضح في المفسدين
في الأرض وجند الله من الحرس الوطني ينفذون حكم الله بلا تردد في
المفسد العربي أو الكردي أو التركي أو البلوشي .. الذي يدعو بدعوى
الجاهلية من أحساب وأنساب وقوميات ويرفض تسمية الخليج
بالخليج الفارسي .. أو يرفع « كلمة حق يراد بها باطل » !! مثل
الدعوة لتسميته بالخليج الإسلامي !! ولم يقتصر نجاح القومية الشيعية

على الداخل بل سرعان ما جندت شيعة الخارج الذين اندفعوا بحماسة وطيب خاطر يستشهدون في العمل ضد حكوماتهم وأحياناً ضد التراب في سبيل نصرة دولة الإسلام .. ولم يقتصر الأمر على الشيعة ، بل نجحت أجهزة المخابرات الإسلامية الإيرانية في تجنيد العديد من الحركات الإسلامية حتى العربية لتقف مع الجيش الإيراني في حربه مع العرب العراقيين .

وهذا حديث طويل وما يعنينا الآن في هذا المبحث ، هو البحث عن الصيغة التي تحقق التضامن الإسلامي ووحدة الحضارة الإسلامية ، مع الاعتراف بحقائق الواقع وضروراته .. لأن إنكار الواقع والإصرار على المحال هو حرث في البحر وحرب طواحين ، ومبعث للتوجس وإثارة العداوات وتعميق للفرقة وفتح الباب للتدخل الأجنبي .. وهذه المناسبة نشير إلى حقيقة أننا لسنا أكثر من تلاميذ لنا بغة المسلمين في العصر الحديث أو في عصر القوميات ، جمال الدين الأفغاني الذي توصل لهذا الفهم منذ أكثر من مائة عام ، عندما دعا للجامعة الإسلامية وقال إنها لا تعنى إلغاء الكيانات القائمة .. بل « يبقى كل أمير على دسه » ولا أظننا سنصل إلى تعبير أفضل .. كما لا أظن أننا سنبتعد عن مفهومه كثيراً إذا ما قلنا : بل تبقى كل حكومة إسلامية على دسها القومي .

فإذا عدنا لحديث الشيخ نجده يتساءل : « هل البديل الأفضل
جلباب قصير ولحية كثة؟! » (ص ٨) .

وقبله سخر المتنبي فأوجع عندما قال عن المصريين : أغاية الدين
أن تحفوا شواربكم يأمة ضحكت من جهلها الأمم ..

ومع ذلك فلنا وللشيخ الأبحاث المطولة على أهمية هذا التميز ، ولا
أحد سخر من طاقة اليهود التي يحرصون عليها . كما لم يقل أحد إن
كل هذه الخرافات التي في التوراة قد عرقلت أو عاقت قوتهم
وتقدمهم . ولماذا يصر الشيخ على العمامة إلى اليوم ؟ وكذلك يوجع
فؤاد الشيخ « أن بعض الشباب كان يهتم بهذه المسألة : هل لمس المرأة
ينقض الوضوء أم لا ؟! » .

لماذا لم يوجع قلب حاخامات إسرائيل أن يتساءل جنودها عشية
انتصارهم في ٦٧ هل يجوز تسخين الطعام يوم السبت أم يوزع
التعيين بارداً لأن التوراة تحرم عليهم إشعال النار في يوم السبت ! وهل
التسخين بالميكرويف يعد إشعالاً للنار؟! بل وأن يتأخر استدعاء
الاحتياط إلى أن تغرب شمس يوم السبت لأنه لا يجوز أن تسير فيه
السيارات ، أو مشكلة طائرات العال التي تطالب الأحزاب الدينية
بوقف سيرها يوم السبت..!! أو المباحثات المملة القاسية مع
الحكومة المصرية لمنع نقل جثث اليهود لأنه خطية في دينهم !! بينما
بذل الشيخ جهداً لا مبرر له في السخرية من حديث دفن سيدنا
موسى بالقرب من فلسطين !

لماذا لم يسخر كهنتهم من تلك القضايا .. وأسفاه !! هل انضم
الشيخ لطابور العصرانيين الذين يتمسكون بالقشور ويزعمون أنها
سبب تخلفنا .. !!

والشيخ ينكر على الشباب اهتمامهم بالتوافه «ويضة الإسلام
مستباحة» لكنى وجدت في كتابه اهتماماً كبيراً بما لا أظن أنه يشغل
بالمسلمين اليوم ، ولا يؤثر سلباً أو إيجاباً في حياتهم وصراعاتهم
العالمية فالفصل الأول يبدأ بهذه الأحاديث التي اختارها ساحة
لمعاركه : هل يعذب الميت بكاء أهله عليه .. تحية المسجد ..
حديث دنا الجبار فتدلى .. هل فقاً موسى عين ملك الموت .. هل
نعي الموتى حرام .. فضل الشام .

بربكم إن كان ترفاً الاهتمام بهذه القضايا من جانب فقهاء المسلمين
أو علماء الحديث المغضوب عليهم من الشيخ ، في زمن تحدى فيه أمير
المؤمنين السحابة أن تمطر خارج ديار الإسلام ! إن كان بحث المسلم
الآمن سيد العالم ، وقتها ، في هذه القضايا ترفاً ؟ ! فماذا نقول في من
جعلها قضية والمسلمون يعذبون من سمرقند إلى غزة .. أليس من حق
أحدهم أن يقول على الشيخ أنه بذل جهداً كبيراً في مبحث بهم
الندابات ! واهتم بفقهاء القبور !

ثم ماذا اجتهد الشيخ .. ليتفاخر على السابقين ؟ !

أنكر حديث «لحم البقر داء» وبشرنا بأنه قد صدر «تصحيح من
الشيخ الألباني لحديث لحم البقر داء» وسمح لنفسه أن يقول : «وكل
متدبر للقرآن يدرك أن الحديث لا قيمة له ، مهما كان سندها» .

وقد قلنا إنها عبارة سيئة .. وقارن هذا القول بأدب وتأدب ابن حزم وتدينه وهو يفند الآراء التي تعارض الغناء في عصره ، ويناقد الأحاديث التي استندوا إليها في تحريم الغناء ، فيناقش سندها ويشكك في هذا السند بعلمه وبالدليل المادى ثم يقول : « لا يصح في هذا الباب شيء أبداً ، وكل ماورد فيه موضوع ، والله لو أسند جميعه أو واحد منه عن طريق الثقات إلى رسول الله ﷺ ما ترددنا في الأخذ به » ص ٨٤ .

ابن حزم لا يقبل المتن في سائر أحاديث الغناء ، ولكنه يستند في رفضها إلى علة السند ، ويعلن أنه يقبل ويسلم بالمتن رغم ما في نفسه وعقله ضد هذا المتن ، إذا ما توافرت شروط صحة السند ولو في حديث واحد .

هكذا يتكلم علماء الإسلام .. إنهم لا يقولون أبداً : « لاقيمة له مهما كان سنده » أعوذ بالله .

ومع ذلك فأنا أقسم للشيخ إن لحم البقر داء ويقسم معى ألف طبيب .. وليبادر الشيخ شفاه الله وعافاه ليبادر بفحص كلو ستروله ، عسى أن لا يمنعه الطبيب من أكل اللحم الأحمر ، لحم البقر بالذات ! ورضى الله عن عمر بن الخطاب الذى قال : « إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر » (انظر الموطأ لمالك بن أنس) .

ثم حديث عذاب الميت بكاء أهله الذى أفرد له الشيخ الصفحات الطوال ، مستعيناً برواية منسوبة لعائشة رضى الله عنها ، انها رفضت الحديث استناداً إلى الآية الكريمة ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾

[الأنعام - ١٦٤] وإن كان الشيخ قد تناقض تناقضاً فاقعاً عندما قال إن الحديث الصحيح هو أن الكافر هو الذى يعذب ببكاء أهله عليه . وقد أعجبه ما سماه « تأويلاً لطيفاً » وهو قول البعض بأن تعذيب الميت ببكاء أهله عليه : « أن الميت يتعذب أى يتألم لأن الله يعذبه ! وهو تأويل لطيف ، وإذا قبلناه لم يختلف الحديث مع الكتاب الكريم ! ولكن دون هذا التأويل صعوبات : منها أن عائشة تحلف إن رسول الله ﷺ قال إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله ولم يذكر المؤمن » ! ويحس الشيخ مافى هذا القول من تناقض فالآية : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ حكم عام شامل فالعدل الإلهى واحد يشمل المؤمن والكافر . وهنا يأتى الشيخ بتعليل غير لطيف على الإطلاق .. فيقول إن الكافر يزداد عذابه - حتى بعد موته « لأنه سبب فى إضلال غيره » وهو لف ودوران وترقيع وتلفيق فليس من العدل أن يعذب لا المسلم ولا الكافر على جريمة يرتكبها حتى آخر بعد موته . وإنما التفسير الذى يستقيم هو هذا التعليل « اللطيف » أى الألم النفسى ، فالمؤمن والكافر يتألمان أو يتعذبان ، طبعاً حزناً على حزن الأهل ، المؤمن لأن أهله الباكين لا يعلمون ما صار إليه من نعيم الله ، ولو علموا لفرحوا بموته . والكافر لأنه أبصر الحق بعد فوات الأوان وهو يتألم لأن أحبائه لا يعلمون ما ينتظرهم من عذاب ولو علموا لبكوا على حياته وليس مماته .

هذا قولنا .. إذا كان عذاب الميت ببكاء أهله قضية حيوية أهم من الانتفاضة والانتخابات بالقائمة كما يسخر الشيخ من الذين يهتمون ببعض الاهتمامات التى خصص هو لها كتاباً يطبع كل شهرين .

والشيخ شديد الاهتمام بحماية موارد صفحة الوفيات في الأهرام ،
فيحمل حملة شعواء على الذين أنكروا نعى الميت ! مع أن أكثر من
مصلح اجتماعي يتمنون لو كف المصريون عن عادة الفراعنة هذه
والتي أصبحت تكلف العائلة المتوسطة ألوف الجنيهات ، ما بين
إعلانات النعي واحتفالات الصيوان .. ثم الشكر على العزاء وغيره
من بدع المصريين الذين ينفردون بها مما عابه المتنبي !!

وفي حديث تحية المسجد يبدو أن تعدد الطبعات وسرعتها قد
أفسدت كلام الشيخ فلم نفهم ما يريد إذ إن كل ما فهمناه هو أن
المسلمين لابد أنهم كانوا منشغلين بأداء ركعتي تحية المسجد عن سماع
خطبة الرسول ، وهذا هو سر أنهم لم يدونوا إلا القليل جداً من
خمسمائة خطبة أُلقيت في المدينة (ص ٢٧) ولكن استنتاجه مخالف
لمقدمته .. فهو يقول : « كانت السنة إذن هي الاستماع للخطب ،
وما جاء في حديث الأمر بتحية المسجد كان حالة خاصة » . إن
كانت السنة هي الاستماع للخطب .. فأين هي وكيف حدث كما
تساءلت حرفياً ؟ أن : « كل مادونوه بضع خطب لا تبلغ أصابع
اليدين » .

الحق أنني لا أجد تفسيراً لتلك القضية وبالاعتماد على الدليل الذي
قدمه هو إلا عكس ما ذهب إليه وهو أن السنة كانت في الانشغال
بصلاة تحية المسجد .. !

ومنذ بداية علم الحديث والفقهاء والمحدثون على اتفاق أن أحاديث
الآحاد تعامل معاملة خاصة ، إذ لابد لها من تعزيز بأن تكون موافقة

للقرآن أو حديث مؤكد أو يقع عليها إجماع من ناحية اتفاقها مع الدين والمصلحة العامة .. فما الكشف الجديد الذى جاء به الشيخ ليشكك العامة ويعطى مادة لخصومنا بفتح حكاية «جاءت فى الأحاديث المنقولة بطريق الآحاد رواية مستغربة أن الذى دنا فتدلى هو الله!!» ص ٢٩ .

هل أنت أول من استغرب .. وما حاجتنا لاعادتها جذعة فى حديث الساق .. والله ما أذكر أحداً من أهلى ولا أصحابى ولا معارفى ولا من قرأت لهم أو قرأوا لى شغلت بهم قضية التدلى أو الساق . فاتقوا الله فى شباب لا تنقصه بلبله . ورحم الله الإمام سعود الأول الذى عندما سأله منهزم كيف استوى الله على العرش قال كلمة الإمام مالك : «الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال بدعة...» صدقتم .. السؤال بدعة ممن يشبهه ومن ينكره سيان !

يقول الشيخ إن طالباً سأله فى الجزائر عن الحديث الذى يقول إن موسى فقاً عين ملك الموت .. «فقلت للطالب وأنا ضائق الصدر : وماذا يفيدك هذا الحديث ؟ إنه لا يتصل بعقيدة ولا يرتبط به عمل ! والأمة الإسلامية تدور عليها الرحى .. الخ » ص ٣٤ . ولكن ما إن انصرف الشيخ إلى أهله حتى انساه الشيطان الأمة العربية وجلس هو على الرحى وراح يطحن لنا فى حديث ملك الموت وعينه واصبع موسى ست صفحات .

ماذا قال الشيخ ؟! استنكر ان يهرب موسى من لقاء ربه ، وان تفقأ عين الملاك ! تلك القضية التى أنست الشيخ أفغانستان وكشمير واذربيجان . وشغلت فكره حتى شغلنا بها فقال :

« وعدت لنفسى أفكر : إن الحديث صحيح السند ، لكن متنه يثير الريبة ، إذ يفيد أن موسى يكره الموت ، ولا يحب لقاء الله بعدما انتهى أجله ، وهذا المعنى مرفوض بالنسبة إلى الصالحين من عباد الله كما جاء فى الحديث الآخر « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » . فكيف بأنبياء الله ؟ وكيف بواحد من أولى العزم ؟ إن كراهيته للموت بعدما جاء ملكه أمر مستغرب ! ثم هل الملائكة تعرض لهم العاهات التى تعرض للبشر من عمى أو عور ؟ ذلك بعيد » ص ٣٤ .

وليس الشيخ أول من استوقفه الحديث بل سبقه علماء الحديث الذين فسروا بأن الموت حادث مكروه من البشر فتلك فطرة فطرها الله ، وإلا لما قامت دنيا ولا حياة ولا عمران .. لو كانت محبة الله تعنى تمنى الموت شوقا إلى لقاءه ، لخلت الأرض من الصالحين والطيبين .. ! ولما قال الرسول لأصحابه إذا لقيتم الأعداء فلا تتمنوا الموت .. وموسى وكل الأنبياء بشر .. يحسون إحاسيس البشر ومشاعر البشر ومن أهمها حب الحياة وكراهية الموت إلا فى سبيل العقيدة ، وهذا ما يجعله استشهادا أى التضحية بأعلى ما فى طاقة الإنسان أن يضحي به طلبا أو فداء لما يعتقد أنه أعلى من الحياة ذاتها ، وإلا لو كان الشوق إلى لقاء الله يفوق الرغبة فى الحياة بشكل واضح ، وكقاعدة عامة عند كل مؤمن ، لما كان هناك معنى للاستشهاد بل لأصبح مجرد حيلة يحقق بها المرء هدفه فى استعجال الموت ويتهرب من خطيئة الانتحار !

الشيخ يوافق علماء الحديث على أن الإنسان يحب الحياة ولكن يشترط لمشروعية هذا الحب للحياة أن يكون الإنسان فى تمام الصحة

والعافية !! أما : «الحديث المذكور فهو يتجاوز أحوال الصحة المعتادة ، وانغماس الناس في معاشهم يزرعون ويصنعون ويتجرون ، فإن إقبالهم على الحياة لا نكر فيه ، ونزول الموت هنا يوصف بأنه مصيبة ! وما تقوم الدنيا وينشأ عمرانها إلا من هذا الشعور بالحياة وحبا . على أن المؤمن قد ينبذ الحياة الدنيا في ساعة فداء ينصر بها دينه ويلقى بها ربه ، فهو وإن انغمس في شئون الدنيا لا ينسى أبدا دينه ، ولا ينكص عن لقاء ربه . وحديث أحمد بن حنبل يتجاوز هذه الظروف كلها ليشرح اللحظات الأخيرة من عمر المتوفى وهو في فراش المرض . أو وهو على أبواب الآخرة ، وقد شرع ملك الموت يسترد الروح ليعود بها إلى بارئها . في هذه الأوقات الحرجة تجيء البشرى التى يطير بها المؤمن فرحاً ، أو الأنباء التى ينوء بها الفاجر كمدأ .

« فلننظر على ضوء هذه الحقائق إلى حديث فقء موسى لعين ملك الموت .. إن الملك قال لموسى : أجب ربك .. يعنى أن عمرك انتهى ، فاستعد لتسليم روحك والعودة إلى ربك !! أفى هذه العودة ما يضايق موسى ؟ قال المدافعون عن الحديث : موسى كسائر البشر يكره الموت ونقول : كراهية الموت مفهومة في الأحوال العادية للناس العاديين . ولا معنى لها بعد انتهاء الأجل ، ومجيء الملك ليسترد وديعته ! » ص ٣٧ .

لنستعرض ما قاله الشيخ :

«الحديث صحيح السند ولكن متنه يثير الريبة»

وقلنا إن هذا قول لا يليق ، ونحن نجامل الشيخ بهذا التعليق فلم

يعرف عنا هذه الرقة في مثل هذا ..

صحيح السند أى أنه كما قلنا من كلام رسول الله فلا مجال ولا لياقة ولا ادب في قول القائل : «متنه يثير الريبة» .

لا ..

لا ..

خانك التعبير يامولانا ..

قل : متنه يثير التساؤل عن معناه أو مغزاه ..

يقول الشيخ عن الحديث : «ورفضه أو قبوله خلاف فكرى ، وليس خلافا عقائديا» ص ٣٦ . وكان أخرى به أن يقول : «ترف فكرى» إذ ما دام لا يمس العقيدة ، ولا يشكل أهمية في حياتنا اليوم ، فنحن لا نقابل ملك الموت ولا نفقاً عينه ! فما أهمية الجدل حوله ؟! ألا ترى أننا عدنا إلى مبحث لو دخل رجل بأكمله في فرج امرأة ، ومبحث القرية الملعونة إياها !

والشيخ يحاول ان يرقع ما يظنه مثقوبا فيضع نظرية مؤداها : مشروعية كراهية لقاء الله مادام في العمر بقية .. ! فإذا بلغت التراقي والتفت الساق بالساق هنا يتفجر حب لقاء الله ! وحق أن يقال لمن هذا فعله : الآن وقد كرهت من قبل ؟ لا حبا ولا كرامة إنما هذا تسليم اليأس من الحياة ..

مصدر الخطأ ان الشيخ جعل حب لقاء الله معارضا أو مضادا لحب العاجلة الذى شهد عز وجل انه فطرة الناس ! وليس هناك من تضاد . لقد خلقنا الله لفترة معلومة نقضيها على هذه الأرض وفطر فينا حب هذه الحياة القصيرة ليكون العمران وليكون العمل الذى

يجعل لقاءنا بالله مبعث السرور . والمؤمن يعلم أن هذا اللقاء محتوم وأنه لقاء خالد يدوم أبد الدهر فما عليه إن تشبث فترة اطول ، بمن وما ، سيفارقه إلى يوم الدين ، فترة ، هى فى عمر الكون اقل من لمح البصر .

ومن أين علم الشيخ ان موسى كان فى النزع الأخير ؟! واضح أنه كان فى تمام قوته وعافيته بحيث تمكن من فقء عين ملك الموت . ومادام ملك الموت يأتى على هيئة ثرى ، فلا بد أن له عينا تفقأ ، تماما كما ان الملاك الرسول الذى يأتى على قدمين يترك اثرا يمكن السامرى من قبض قبضة من هذا الأثر يفتن بها قوم موسى .. وإرهاب الناس بحكاية لماذا تكره لقاء الله سيئة العواقب جدا وجعلت بعض الماجنين يسخرون من تداوى شيوخنا ، وصوروا الامر وكأن هؤلاء الشيوخ يحرمون غرف الانعاش أو استبدال الاعضاء أو الغسيل الكلوى ، تعجيلا بلقاء الله !

صحيح انه إذا جاء التبليغ والبشرى والخيار فليس للعبد أن يتأخر أو يختار .. ولكن الثابت أن الغالبية العظمى تموت بغتة ، وأننا جميعاً نكره الموت . والحديث هو تطمين للبشر المؤمنين بأن شعورهم هذا ليس خطيئة ، فحتى النبى موسى كره الموت وفقاً عين من جاءه به . وهذا ما يرفع المجاهدين والشهداء إلى مرتبة عالية ، فهم يقبلون على هذا المكروه البغيض حتى من كلم الله ، يسعون إليه هم طاعة لله ونصرة لدينه .

يقول الشيخ ان من يتهم بالإلحاد رافض هذا الحديث فهو يستطيل فى أعراض المسلمين .. حاشا لله أن نتهم الشيخ بالإلحاد ، ولكننا نقول إنه أثار فتنة لا مبرر لها . وتكاسل عن إعمال فكره فى مغزى

الحديث .. وهو من الأحاديث التعليمية ، ومن الإعلام بالغيب ، ولا يخضع لمقاييس النقد العادية إلا من ناحية السند وقد شهدت انه صحيح فصدق وتفكر ..

ويتساءل الشيخ : «وقد طلب موسى أن يدفن على مرمى حجر من حدود فلسطين التي جبن قومه عن دخولها فهل هذا الطلب تفسير لحرص اليهود الآن على نقل موتاهم إلى الأرض المقدسة ؟» .
ربما .. مادخلنا بذلك .. وأى حق يترتب عليه .. هل يتهم الشيخ الحديث بالصهيونية ليرهب المشبتين له ؟

يتعجب الشيخ : «ومع ذلك فإن هذا الحديث المرفوض من عائشة امايزال مثبتاً في الصحاح» .
نعم !

وسيظل مثبتاً إلى ابد الدهر !! فالصحاح اصبحت وثائق ، لا نملك الحذف فيها كما يفعل أصحاب الأديان الأخرى من حذف وتعديل كل حين في كتبهم ! وإنه لتفكير مضحك طفولي حقا أن يفكر الشيخ وجريدته في تجنب الحرج الذي يشعرون به إزاء سلمان رشدي والأمريكان والاستراليين ، بحذف الأحاديث التي يشكك فيها هؤلاء أو ينتقدونها ، من كتب الحديث .. تماماً كما وضع اليهودي يده على النص في التوراة يريد اخفائه عن رسول الله لأنه يخرج اليهودي وهي صورة شديدة السداجة ، ولكن دعوة الشيخ أكثر اضحاً .. لأن المستشرق أو المعادي للإسلام لن يهتم بصحيح الغزالي وابن احسان ، ويترك فتح الباري والطبري ! بل سيكون ذلك انهزاماً وتسليماً بدعواهم وتخريصاتهم . هل تبطل تطاولات سلمان رشدي إن قلنا له — كما يدعو صبي الشيخ — صدقت ! حكاية

الغرائيق فضيحة ، ولو وقعت لأبطلت الإسلام واثبتت ان نبينا مزيف .. ولكن الحمد لله الشيخ الغزالي كذبها ، واثبت أن علماء الحديث والتاريخ شواخ الإسلام كانوا من الغفلة بأمور دينهم ، بحيث انطلى الزور عليهم وعكفوا يتلون حديث الغرائيق ألف سنة حتى ظهر الغزالي .. وما الذى يلزم سلمان بروايتكما !؟

نحن لا نملك تنقيح الصحاح الآن ، وإنما نملك إعمال الفكر .. كما قال الشيخ ولم يلتزم : «إنه لا خلاف بين المسلمين فى العمل بما صحت نسبته لرسول الله — ﷺ — وفق أصول الاستدلال التى وضعها الأئمة ، وانتهت إليها الأمة .. إنما ينشأ الخلاف حول صدق هذه النسبة أو بطلانها ... وهو خلاف لا بد من حسمه ، ولا بد من رفض الافتعال أو التكلف فيه .. فإذا استجمع الخبر المروى شروط الصحة المقررة بين العلماء فلا معنى لرفضه» ص ٣٣ .

من يعرف ذلك ، لا يجوز له أبدا أن يقول هذا القول الفاحش الخطأ والتعس التعبير : «أهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل ، وهذه سوءة فكرية وخلقية رفضها الفقهاء المحققون !» .

أعوذ بالله .. ! سوءة مرة واحدة وخلقية وفكرية كان ١١؟

الرأى ما نقلته انت عن «أستاذنا» مصطفى الزرقا وهو قوله : ان الدية تعويض عن مفقود (ولا داعى لوضع علامة تعجب فهى هكذا تماما ج) ولذلك فهى تتناسب مع حجم الخسارة التى تلحق بورثة القتيل أو القتيلة .. ولا دخل لها فى المساواة ، وإلا لكانت هناك تسعيرة واحدة لكل الجنس البشرى سواء أكان القتيل متسولا لا يعول أحدا أو والدأ لأسرة أو ابنا شابا أمامه مستقبل حافل بالاحتمالات ..

ومادنا نعرف أن هذا التفاوت يقع في الدية فقط أى التعويض وأن من قتل رجلاً أو امرأة أو طفلاً أو شيخاً ملكاً كان أو سوقة ، فعقوبته واحدة .

فالأمر إذن لا يتعلق بتمييز جنسى ولا عنصري ، ولا دخل فيه لمكانة المرأة أو سعر دمها وإنما قدرت هذه النسبة على ضوء دور المرأة الاقتصادى ، وقتها ، وهو تقدير مرن بالطبع تحكمه ظروف كل حالة بعينها ، وفي ظل الواقع الاجتماعى . فيمكن أن تقدر دية امرأة بعينها بمائة ضعف رجل آخر .. وقد ورد في حديث سعيد بن المسيب أن : « اصبعها كإصبعه ، وسننها كسنه وموضحتها كموضحته ومنقلتها كمنقلته » وهم نظروا إلى الأمر كما قلنا من زاوية تقدير الخسارة وليس ثمن الدم أو الاحترام وإلا لما حسبوا للرجل ثلاث ديات إذا أصيبت يده ورجلاه وعينه » (مالك بن أنس) فهاهو يأخذ في بعضه ثلاثة أضعاف ما يأخذ أهله فيه كله ، ومنطق أهل الحديث اقوم من منطق الشيخ ، فخسارة الإنسان في نفسه بفقد هذه الأعضاء أكبر من خسارة ورثته بوفاته . وبنفس المنطق حكموا للأعور الذى فقد عينه الوحيدة بدية كاملة بينما هي في عين واحدة للمبصر اقل من ذلك بكثير . فالمهم هو حجم الخسارة .

وعجباً لك يا شيخنا قبلت للمرأة ، في حياتها أن يكون للذكر مثل حظها مرتين ، ورفضت لورثتها نفس النسبة ، وقلت انها سواة !! ألا تدري أنك أصبت النص بطلقاتك ، وأن البعض قد يتهمك بأنك اثرت الصخب حول الحديث لتشكك في الآية ؟! وإلا فمادامت ترث النصف فما العيب أن يكون تعويض فقدها النصف ؟! وبمنطقتك في المساواة السوقية أليس أكثر ظلماً أن ترث النصف وهي

حية .. وما يضيرها ديتها بعد ذبحها ١٩

ومرة أخرى هذا في الدية وليس في القصاص . ولكن الشيخ يجعلها مسألة رخص دم يقول : « فالدية في القرآن واحدة للرجل والمرأة (!!) » والزعم بأن دم المرأة أرخص ، وحققها أهون زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب . ان الرجل يقتل في المرأة كما تقتل المرأة في الرجل ، فدمهما سواء باتفاق ، فما الذي يجعل دية دون دية ؟ » ص ٢٦ .

ونحن لم نجد هذا الذي يقوله في القرآن ، فالآيات التي وردت فيها الدية هي : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً . ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » [النساء : ٩٢ - ٩٣] .

فلم يرد لادية النساء ولا مساواتهن .. وإنما اعتبر الخطاب القرآني يشمل دائماً الرجل والمرأة إذا لم يخص ، فالحديث عن مجرد دية تدفع فحسب ولكن لم يحددها .. وكما قلنا نظر الفقهاء وعلماء الحديث إليها كتعويض وأفتوا بما قلنا ، وهي كما نعرف في القتل الخطأ فقط اما القتل المتعمد فعقوبته الإعدام سواء أكان القتل رجلاً أو امرأة أو طفلاً .. ثم الخلود في جهنم . (وأفتى على في الرجل الذي قتل امرأته لأنه ضبطها مع رجل .. ان لم يأت بأربعة شهداء ، فليعط برمته » (أى يقتل بها) .

ولا أدري أصحيح لا يعرف الشيخ الفرق بين القصاص أو العقوبة والغرامة أو التعويض؟! حتى يخلط بين الدية والدم ومبدأ النفس بالنفس ويشير صخباً وتشهيراً لا مبرر له ولا سند! إلا أن كانت حرباً يقصد بها — كما قلنا — مبدأ: وللذكر مثل حظ الأنثيين.. وبدأ بجس النبض في الدية!

واين القفشة التي يوردها الشيخ هنا: «وقد بلغنى أن بدويا قتل مهندساً أمريكياً في إحدى دول الخليج، وقال أهل الحديث لا يجوز القصاص! وشعرت الحكومة بالخرج، ولكن تم الخروج من المأزق بقتل المجرم من باب السياسة الشرعية! وترك الحديث الوارد بمنع هذا القصاص مع صحة سنده..» ص ٢٥.

نعم! ترك الحديث وعمل بحديث غيره، فلماذا إخراج اللسان! ورأى الشيخ في الحجاب لا خلاف فيه وقد سبقناه إليه قبل ثلاثين سنة في كتابنا «دراسة في فكر منحل» وسبقنا الكثيرون، ولكن لا أحب للشيخ أن يفتى بخبرته المحدودة فهو يستشهد بالآية الشريفة: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور - ٣٠] .. ثم يتساءل الشيخ في حدة وسخرية: «أَيُغْضُونَهَا عَنْ الْقَفَا وَالظَّهْر» (ص ٤٥) لا بد أن الشيخ لا يصفق بالأسواق ويغض الطرف دائماً، وإلا لما سأل هذا السؤال الذي يدل على أنه يجهل الكثير مما يجب غض البصر عنه غير الوجه، بل لو شئنا أن نتساءل، لقلنا لو شاء الله أن يغض البصر عن وجه المرأة لخفف عنا وأمرها بتغطيته! وإلا فهل ترتاح نفس شيخنا، وتنفث نفسه لدعوة أهل أمريكا وأستراليا إلى وضع وجوههم في الأرض وهم يخاطبون المرأة أو أن يحادثها الرجل وقد

أغمض عينيه كأن في وجهها جذاماً ينفر منه ، أو كأن الرجل المسلم لا يستطيع أن يتطلع في وجه امرأة إلا وتتفجر شهوته ؟ ! الأقرب للفهم والتصوير هو غض البصر عما يخرج المرأة أن يتطلع إليه رجل حاد البصر فاجره .. أما الوجه الذى أفتى الشيخ بكشفه ، فهو مكشوف لكى يتطلع ويتطلع إليه ، بالعفة الواجبة ، والجدية .

ونفس هذا الاستعلاء غير المبرر نجده في تعليقه : « رفض أحد القراء مذهب أى حنيفة ، وقال : إن لفظة « تنكح زوجها غيره » حقيقة في الوطء وحده !! وهذا اعتراض فاحش مدهش . هل النكاح المنشود يقع عن زنى أو عن زواج ؟ لا أظن عاقلًا يزعم أن الزنى يحلل المرأة لزوجها الأول ، فلم يبق إلا أن كلمة « تنكح » حقيقة في العقد والوطء معا ، ولكن التعصب المذهبي يجر أصحابه إلى الغرائب » ص ٦٠ .

وأعتقد أن رأى هذا القارئ أقرب للفهم ، لأن القرآن عندما يتحدث عن النكاح فهو بداهة يعنى الزواج ومن ثم فهذه ليست القضية التى تستحق التركيز واستنباط الأحكام ، فهذه بديهية ، لأن الله لا يشرع الزنى ، وإنما جاء النص في الآية على الوطء لمنع التحايل أو المحلل ... وهذا أساس الحديث .. « حتى تذوق عسيلته » . وهى كانت متزوجة فعلا ، وإنما أراد الرسول الوطء . ولكن شهوة المعارضة تجر صاحبها إلى مواضع ينقلب فيها علمه جهلا ..

والشيخ وقد اندفع في تجريح الأحاديث واعتصارها ليستخرج منها القبيح الذى يملأ نفس أعداء السنة ، يتعسف التأويل ويتعجل التفسير ..

مثلا : حديث المرأة التي أتت النبي قالت : يا رسول الله أرى مريض وزوجى يأبى أن يأذن لى أن امرضه فقال لها النبي أطيعى زوجك فمات أبوها ورفض زوجها أن تصلى عليه فسألت النبي فقال لها أطيعى زوجك فطاعت فقال لها النبي قد غفر الله لأبيك بطواعيتك لزوجك !!

ثم يعلق الشيخ فى حدة افتقدناها منه فى مواقف ادعى لانفعاله ، يقول الشيخ : « وهو يقطع ما أمر الله به أن يوصل ويرخص الوفاء بحق الوالدين ، وهدفه ألا تخرج المرأة من البيت ابدا وهو هدف ينكره الإسلام ، وفى الحديث الصحيح « إن الله أذن لكن أن تخرجن فى حوائجكن » ص ٥١ .

على مهلك ياسيدنا الشيخ .. جبت منين أنها كانت لا تخرج من بيتها ابدا ! والحديث يؤكد أنها خرجت مرتين على الأقل للشكوى لرسول الله ولم يمنعها زوجها !؟
هو رمى طوب .. !؟

تقول : « سجننا للمرأة تقطع فيه ما أمر الله أن يوصل .. » اين السجن ؟ زوج لسبب ما لا يريد لزوجته أن تزور أهلها أو أباه بالذات ، لا نعرف ظروفهم ، ولا أسباب هذا المنع ، ولا نستطيع أن ندين بدون معرفة الأسباب ، من يدري ماكان أبوها ولا ماذا كان فعله أو علاقته بزوجها . كما لا نعرف مدى سوء هذا الزوج . هذه قضية لا تدخل لها لا بسجن المرأة ولا حبسها فى بيتها ، وإنما هى قضية : هل تطيع المرأة زوجها فى ما يخالف عاطفتها حتى ولو كان

قرار الزوج قاسيا وضد اشرف العواطف ؟! وهل كان يفيدها ان تخالفه وتزوره ويموت أبوها وتفقد زوجها .. ؟ هذه قضايا تتسع للحديث والمناقشة . لا أن نجعلها دليلا على أن المرأة تسجن في بيت المسلم فلا تخرج إلا للقبر ؟ من أين جاء هذا الاستخراج ! ومن الذى يشهر بنا وبديننا . وهذه نقطة غفل عنها الشيخ أو تغافل ، وهى أن حملته على التراث إلى حد التجريح ، والاستعانة بالمفاهيم التقدمية وميثاق حقوق الإنسان لإثبات جرم هذا التراث . وليس فقط تخلفه ، هذا الأسلوب لن يجعل الإسلام في عيون الأجانب بل بالعكس قد يقرون أنك شيخ تقدمى متحضر وفى نفس الوقت سيقنعهم تجريحك ، ان تعاملهم علينا عادل فهاهو شيخ يؤيدهم فى أن التراث أو السلف يقدم : « للإسلام صورا تثير الاشمئزاز » ص ٥١ .

أعوذ بالله من دى الملافظ .. اشمئزاز مرة واحدة !!

كذلك حديث « لا يُسأل الرجل فيم ضرب امرأته » ؟ جعله الشيخ حديثا فى المسئولية الجنائية عند النيابة وأحال أوراق الحديث للجنة حقوق الإنسان ومنظمات تحرير المرأة ووقف يهلل لنا : « أنرى بناتنا ليذهبن إلى فحل يلطمهن أو يؤذيهن دون مساءلة فى الدنيا والآخرة .. » (يعنى حصلت الآخرة كمان) ويشكو « إن ديننا متهم بأنه ضد حقوق الإنسان » .

من الذى يجرو على اتهامه ياشيخ ؟! وهل أصبح الإنسان إنسانا واكتملت إنسانيته إلا منذ بعث محمد بن عبد الله ؟!

وببراعة فائقة هرب الشيخ من النص القرآنى .. ﴿واضربوهن﴾ .
الحمد لله لم يقل من أحاديث الاحاد .. استغفر الله العظيم . ولكنه
يدرك بالتأكيد أن تشهيره بالضرب ينال الآية ويعطى مادة للمتحمسين
والأوغاد !

والحكاية أهون من كل هذه الضجة ، وقد تعرضت لها فى كتاباتى
السابقة وكشفت أنها قمة فى فهم السلوك النفسى للرجل والمرأة ،
فهى تبدأ بالوعظ والمعاتبة بالطبع ، ثم الهجر فى المضاجع ، أى ينام
ويعطيها ظهره ليقهر غرورها ، ويشير حبها وما بينهما من ود . فإن لم
يفلح ذلك كله فى ثنيها عن النشوز ضربها ولا بد أن يكون الضرب
بالكف وعلى غير الوجه ، ولا بد أن الذين لديهم خبرة فى هذه الأمور
يمكنهم تخيل ما سيجرى بين زوج محب وزوجة تقلانه وهو يحاول أن
يضربها بكفه المبسوطة على غير الوجه .. اين سيضربها يامولانا وإلى
متى سيستمر ضربا .. وقد أطنبت فى كتاباتى السابقة عن شتى
الحالات مما لا مجال لتكراره .. وإذا قبلنا الاذن الإلهى
﴿واضربوهن﴾ .. فما الغرابة فى حديث يمنع من السؤال عن سبب
الضرب !؟

أما المقصود فى الحديث الذى أثار ثائرة الشيخ فهو : إذا رأيت
رجلا ضرب امرأته فلا تسأله عن سبب ضربها ، ولذلك جاءت
كلمة « فيم » أى فى ماذا ضربها ؟
ياويلتى وأنا أعلم الشيخ اللغة !

وسر النهى عن سؤال الرجل عن سبب ضربه لامرأته ، هو أن هذا السؤال عن سبب الضرب ، قد يكشف ما يسوءها أو يسيء إلى العائلة ، فالضرب بين الزوجين السويين غالباً ما يكون حول قضية شديدة الحساسية يفرع فيها الرجل إلى رجولته العضلية .. ولا دخل لذلك في المسؤولية الجنائية ولا أسقط حقا في مساءلة « كيف » تضربها . وهناك رواية عن عمر بن الخطاب عندما خرج على ضيفه قائلاً إذا رأيت الرجل قد ضرب زوجته فلا تسأله فيم ضربها .. ولا أظن أن عمر كان يتحدث عن المؤاخذه الجنائية ! .

ومرة أخرى أين وجه الاعتراض : الضرب .. أم السؤال ؟ ان قلت الضرب فهو اعتراض على الآية 1.

وإذا كانت الأحاديث التي تتحدث عنها « مردودة كلها » ص ٦٤ . فلماذا تزعجنا وتجعلها قضية ؟ .

وكثير من القضايا نقر الشيخ عليها ، ولا أريد أن أقول سبقناه فيها ، وإنما الذى يزعجنا ان حجته فيها هى ارضاء الزبون الأجنبى .. كأنه يباع ، يتعامل بشعار : الزبون دائما على حق .. !

كأن يهاجم شعار الحرب الهجومية لأنه لا يليق « والمسلمون لا يقدرّون على التقاط أنفاسهم ، ولا يصنعون سنانا .. الخ » كأنه يؤمن بأن الحق مع القوة ! ولأننا لا نصنع الأسلحة فيجب أن نتحلّى بمكارم الأخلاق مؤقتا !!

وفى هذه القضية خلط الشيخ خلطا مزعجا ما بين الحرب العدوانية والمباغته ، ووصل إلى تحريم المباغته فى الحرب على

الاطلاق ؟ فقد لعن « من صدقوا أن الرسول يأخذ الناس على غرة » !
(ص ١٩٨) وبفتواه هذه يصبح قرار عبد الناصر بتلقى الضربة الأولى في ١٩٦٧ التزاما بالشرع ! لو علمها الناصريون ما فاتتهم !
ويحق للناصرين أن يضيفوا إلى حقدهم على حرب أكتوبر ادعاء أنها مخالفة للسنة مشكوك في شرعيتها ، إذ كان علينا أن ندعو اليهود ثلاث مرات قبل أن نوجه لهم ضربة طيران مفاجئة كما فعل سلمان الفارسي مع أصحاب الحصن !

يصعب أن نقنع أحدا أن هذا قول داعية سلام ، بل سيقول البعض إنها محاولة متواضعة لتزويق الإسلام لبيعه في الغرب ، محاولة مستضعفين للاعتذار عن التاريخ الإسلامي ! فلو كان الشيخ حقا كما يحاول أن يبدو داعية سلام ، لبدأ السؤال هكذا : ما الذي أتى بسلمان من المدينة في قلب الحجاز إلى حصن الفرس ، حتى حاصرهم في عقر دارهم ، ولم يترك لهم منفذا من أسنة جنده ؟ ولكنه يقفز فوق هذه ، ويتشدد بأن سلمان ظل يخيرهم بين التسليم أو الذبح ثلاثة أيام ، كلعب القطعة بالفأر .. لا .. ياسيدنا ! مشروعية غزو سلمان لبلاد الفرس هي الأساس الذي تبنى عليه مشروعية القتال ، ثم بعد ذلك الحرب خدعة ، والفائز من بيت خصمه بالضربة الأولى المفاجئة فإن كنت ، أصلا ، شاكا في مشروعية الفتح الإسلامي — العربي لفارس فلا يجديك التشبث بالنوافل .

الفصل الثالث

قال الشيخ محمد الغزالي في كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»: «وهناك قضايا لا يجوز فيها التساهل لخطورتها، وقد شعرت بالغیظ والخرج وأنا أقرأ أن يهوديا وغدا سحر النبي عليه الصلاة والسلام وأعجزه عن مباشرة نسائه مدة قدرها ابن حجر بستة شهور! أكذلك تنال القمم» ص ٧٦ .

وقبل أن نناقش هذا الأمر الذى أكرب الشيخ وجعله يادر فى استسهال إلى رفض الحديث ليتخلص منه ومن إخراجات الأمريكیین والاسترالیین ، وامثال سلمان رشدى المتربصین بالمتشككین .. قبل أن نخوض فى حديث السحر .. نقف عند نقطة تبدو شكلية ، ولكنها جوهريّة فيما نحن فيه وهى : إن كان الشيخ على يقين أن الرسول لم يسحره اليهودى .. فلماذا سماه باليهودى «الوغد» ما ذنب الرجل وهو لم يسحر .. هل سبه توددا للانتفاضة ومنظمة أوى نضال ، أو خشى أن يتهم بالدفاع عن اليهودى ؟! .. توقفت عند هذه النقطة التى تبدو وكأنها قفشة ، لأكشف عن بعد جديد فى حديث السحر ، وهو البعد الذى يؤكد أن ليس كل قديم متخلفاً ولا كل متحرر متقدما ، ويتضح هذا البعد من أن الموقف الإسلامى من اليهودى فى الحديث الذى يشمئز منه الشيخ ، أكثر عدلا وأكثر إنسانية وسموا من استنكار الشيخ ! شيخنا يوقن ببراءة اليهودى ، ومع ذلك سبه ونعته بالوغد لمجرد أنه يهودى !! بينما يعلمنا الحديث أن

رسول الله كان يعلم علم اليقين أن اليهودى سحر له ، ومع ذلك ولأن الدليل المادى لم يتوافر فإن الرسول لم يعبس فى وجه اليهودى ولا نعته هو ولا نعته أحد من المسلمين بكلمة سوء واحدة .. أرأيت يا شيخنا أن التقدمية والإنسانية لا تفتعل ولا تستجدى من الغرب .. إنها خلق أصيل فى حضارتنا ، التى صنعها إسلامنا .

أما عن حديث السحر فكنت قد كتبت ردا على من أثاروه منذ ربع قرن ، وهذه قضايا تثار — كما قلنا — بصفة دورية لتشكيك المسلمين فى دينهم ، يثيرها الطالح ويقع فيها الساذج ، وكنت قد نشرت هذا الرد ، أو إن شئت البحث فى كتابى «الحق المر» الذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٥ ولا أجد ما أضيفه إليه اليوم . وإليك نصه :

«خذ مثلاً حادث السحر .. فقد تردد الحديث عنه ، لا أقول أخيراً بمناسبة ما كتب ، بل منذ بداية كتابة علم الحديث وأنكره جانب كبير من العلماء .. وحديث السحر فى شتى الروايات عن عائشة وعن عمر مولى عفره وعن عمر بن الحاكم ، أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر النبى ، ثم إن جبريل وميكائيل عليهما السلام .. أخبرا النبى بذلك ، فدعا جبير بن أياس الزرقى ، وهو أحد الذين شهدوا بدرا ، فذله على موضعه فى بئر ذروان فخرج جبير حتى استخرجه ، وقيل ان الذى استخرج السحر قيس بن محصن . فقالت عائشة يا رسول الله : فأخرجه للناس .. وقالت ألا تحرقه (أى السحر) .. ألا تقتله (أى الساحر) فقال : لا أفتح على أمتى بابا

للشر .. أو كرهت أن أثير على الناس شراً .. وفي حديث زيد بن أرقم : « فما حدث به ولا رُئي في وجهه ! » وعن الزهري في ساحر أهل العهد قال : « لا يقتل .. فقد سحر رسول الله رجل من أهل العهد فلم يقتله » . ويرى النووي أن السحر ليس كفراً في حد ذاته ولكن يعتبر كفراً ، إذا كان ضمن طقوسه إجراءات كافرة ، وقال : « لا يقتل عندنا » . وقال مالك : الساحر كافر .. « ويقتل بالسحر » . وقال النووي « وعندنا ليس بكافر ، فإذا ثبت أن الساحر قتل إنساناً بسحره ، واعترف أنه مات بسحره وأنه يقتل غالباً لزمه القصاص ، وقال أصحابنا ولا يتصور القتل بالسحر بالبينة وإنما يتصور باعتراف الساحر » .

وأول ساحر قتل في الإسلام ، هو الذي جاء ذكره في حادث جندب بن كعب بن عبد الله ، وسبب ذلك أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما كان أميراً على الكوفة ، حضر عنده ساحر فكان يلعب بين يدي الوليد ، يريه أنه يقتل رجلاً ثم يحييه ، ويدخل في فم الناقة ثم يخرج من حيائها ، فأخذ سيفاً من صيقل واشتمل عليه وجاء إلى الساحر فضربه ضربة فقتله وقال : « أحي نفسك » ثم قرأ : ﴿ أفأتأتون الساحر وأنتم تبصرون ؟ ﴾ [الأنبياء - ٣] فوضع في السجن فلما رأى السجنان صلاته وصومه نخل سبيله ، فأخذ الوليد السجنان فقتله . وقيل بل سجنه حتى أتاه كتاب عثمان باطلاقه ، وقيل بل حبس الوليد جندباً فجاء أخوه فأخرجته فانطلق إلى أرض الروم ، فلم يزل يقاتل بها المشركين ، حتى مات لعشر سنوات مضين من خلافة معاوية .. » .

أعترف أنني توقفت عندما قرأت الحديث .. ورحت أتساءل :

كيف يسحر رسول الله ؟
كيف يتقبل عقل علمى السحر ؟ ..

بل ان « ماكس ويير » يستشهد بحديث السحر على أن الإسلام
يفتقر إلى العقلانية ، ومن ثم لا يستطيع أن يبنى المجتمع الصناعى !
ثم عدت أقرأ الحديث ولنقرأه معاً .

* الفعل قد تم .

ليبد بن الأعصم مارس السحر ضد رسول الله ، والدليل عليه
لا يقبل الشك أو الطعن ، فهو بشهادة رسول الله عن تبليغ من جبريل
وميكائيل .. شاهدان يرجمان أهل الأرض جميعاً .. فالشهادة جاءت
من نفس المصدر الذى يرجع إليه ديننا كله .. فما من مسلم أو
مسلمة يحق لهما أن يتشككا فى جريمة ليبد بن الأعصم ، بعد أن شهد
رسول الله نقلاً عن جبريل ..

* الدليل المادى على صحة تبليغ جبريل قد وجد وهو أشياء تستخدم
عادة فى السحر ، مطمورة فى البئر .

* اقترح على رسول الله أن يحرق مادة السحر لكى يطل مفعولها ،
وبالطبع كان سيصاحب الحرق بعض الطقوس ، من المؤكد أنها ما
كانت لتكون من طقوس الوثنية ، أو فيها ما يغضب الله .. بل تلاوة
لآيات من القرآن وبعض الدعاء .

رفض رسول الله رفضاً قاطعاً أن تجرى هذه الطقوس ، وقال : لا
أفتح على أمتى باباً للشر .. والرسول هنا يتحدث عن الشر الذى يأتى
لا من السحر الأسود ، بل من فعل إبطال السحر .. إذا ما اتخذ شكل

طقوس معينة ، فهنا أبصر صلوات الله عليه ببصيرة النبوة ، أى شر
يمكن أن يفتح على أمته لو أصبح إبطال السحر سنة عن نبيهم .. أى
حرفة ستنشأ تحت اسم : «إبطال السحر» ؛ أى قلق سينتاب الناس
مادام السحر الموجه ضدهم لم ييطل .. أى ثقل ستكتسب عملية
السحر ذاتها ، من خلال الإيمان بضرورة ابطالها بأفعال مادية وغير
مادية .. فذلك وحده دليل لا يدحض على تأثيرها .. وخطورة
استمرار هذا التأثير . كل هذا أغلقه رسول الله برفضه إجراء
طقوس ..

* فما ذكره له رسول الله ولا رآه في وجهه .. أى أن رسول الله لم
يواجه مرتكب فعل السحر بأى اتهام ، ولا عبس في وجهه ،
ولا بدت عليه أى ملاحم تشير إلى اتهام ..

* الساحر لم توقع عليه عقوبة ، ولا وجه له اتهام ، ولا حتى عومل
بنفور .. ورفض رسول الله أن يقتله حتى لا يفتح بابا للشر !

وقد استند فقهاء المسلمين إلى ذلك في عدم قتل الساحر ..
والذى قرر قتله ، لم يقتله لأنه ساحر بل لأنه كافر .. وقال الآخرون
إنه إذا استخدم في سحره ما يفضى إلى الكفر .. كان مرتدا ..
والصحابى الذى قتل الساحر قتله لأنه قال إنه يحبى الموتى وألقت
السلطة الإسلامية القبض عليه ، وأودعته السجن ، ولولا أنه هرب
بمعونة أخيه ، أو بمعونة الحارس إلى الشام حيث مات في جبهة
القتال .. لأنزلت به القصاص . وتذكر أن القاتل المقبوض عليه
صحابى .. والساحر شخص مجهول لعله من الفرس أسلم أو لم
يسلم .. ومع ذلك لم تتردد السلطات الإسلامية في القبض على
الصحابى ..

* ونستطيع أن نستخلص من الحديث مبدأ تشريعيا عاما ، وقاعدة قانونية خاصة .. فرغم ثبوت التهمة دينيا بطريق القطع .. إلا أنها تفتقر إلى الدليل المادى .. تفتقر إلى دليل أرضى .. فأدلة الإثبات سماوية كلها ، وهى تبليغ جبريل إلى الرسول بأن ذلك السحر من فعل لبيد بن الأعصم ، ثم إرشاده — أى جبريل — إلى جسم الجريمة المدفون فى البئر والذى تم ضبطه .

ولكن من حق المواطن اليهودى أن يشهر فى وجه العدالة الإسلامية دفاعا بطلب دليل مادى يثبت أن هذا السحر الموجود بالبئر يخصه ومن فعله .. ومن حقه أن يطلب جبريل إلى الشهادة ويخصمه .. ومن حقه أن يطعن فى شهادة رسول الله فهو لا يؤمن بأنه رسول الله ، وقد كفل له الإسلام حرية العقيدة ، فليس لنا أن نجبره على التسليم بصدق من لا يؤمن به ..

إذن فما من دليل مادى يبيح لعدالة الإسلام أن توقع عقوبة مادية . فما دامت الأدلة من السماء .. فلتكن العقوبة من السماء .. وليس من حق العدالة الإسلامية أن تعاقب ولا أن تتهم ولا أن تتجافى لمواطن يهودى يستظل بظلها ، مادامت لا تملك دليلا ماديا من أدلة هذه الأرض ..

* وبعد هذا الحديث بعشرة قرون كانت أوروبا تشهد حرق الساحر والساجرة أحياء كاحتفالات روتينية ، وربما لايزيد الدليل على وجود مقشة أو تقوس بأنف الضحية يكفى لإدانتها بالسحر ! (ورد فى صحيفة الأهرام ١٩٦٨/٦/٨ احصائية تقول إنه قتل فى أوروبا فى

الفترة من ١٤٨٠ إلى ١٨٧٠ ثلاثمائة ألف سيدة على زعم أنهن ساحرات !) وهناك مدينة شهيرة في أمريكا اسمها «سالم» كل شهرتها أنها أعدمت طفلة بتهمة السحر في عشية القرن الثامن عشر . «وقدر عدد الساحرات اللواتي أعدمن في ألمانيا وحدها خلال مائة سنة من ١٤٥٠ إلى ١٥٥٠ بمائة ألف ساحرة ، وكلهن أعدمن حرقاً» .. (الأهرام ١٩٧٠/٣/٦) والقضاة الانجليز ، أدانوا ، وضميرهم مستقر ، جان دارك بالسحر بينما رفض الفقهاء ثبوت تهمة القتل على الساحر إلا بالاعتراف .. لاستحالة توافر دليل مادي على القتل بفعل غير مادي بمقاييس ذلك العصر ..

نظلم أنفسنا إن وقفنا من الحديث عند التساؤل .. هل سحر رسول الله أو لم يسحر .. فالسحر مازال يمارس إلى الآن .. فهو كخرافة أو حقيقة موجود في المجتمع .. والحديث لا يدفع أى مسلم للخوف من السحر أو الإيمان به أو الاشتغال به فقد رفض النبي كما رأينا أن يقوم بأى طقوس لفك السحر . ولكن أبعاد الحديث أعمق وأبعد من هذه القضية .. فإنه كما رأينا يضع الأساس لوقاية المجتمع الإسلامى من فتنة السحر .. وأعفى المواطنين الأبرياء من أن تنكل بهم غوغائية الجماهير ، أو أحقاد السلطة باسم السحر ..

إنه قمة خالدة في الشرعية .. في الأركان الواجب توافرها للإدانة .. في المساواة المطلقة أمام القانون .. إن هذا الحديث هو أساس المبدأ القانونى الرائع « لا يقضى القاضى بعلمه » فرسول الله خير من علم وأعدل من قضى . ولكنه لا يقضى بعلمه ، ولا ينزل عقوبته بمواطن يهودى بشهادته وحده صلوات الله عليه .

كم من اليهود أعدموا وسجنوا في حضارة القرن العشرين في الغرب
لمجرد أنهم يهود ! بل كم من اليهود أدينوا بلا دليل إلا كونهم يهودا ..
أى قمة تسمو بها حضارتنا في هذا الحديث ، وبعض الدول تعاقب
على التعرض لرئيس الدولة بالإشارة !

ولكن محمدا رسول الله لم يجد نصا قانونيا يبيح له أن يعبس في
وجه من مارس السحر ضده !

لا حد لما يمكن أن تكتشفه البشرية في تقدمها من قيم في سنة
رسول الله . (حرفيا من كتاب « الحق المر » ١٩٧٠ . الطبعة الثالثة) .

كنت أعيد الشيخ الغزالي ان يضيع ويضيع من اتبعه في زحام
التقدميين العلمانيين العصريين فيقلب كفيه مستعليا .. كيف يسحر
الرسول ؟! أكذلك تنال القمم .. هون عليك ياشيخ .. لا أحد ينال
من رسول الله صلوات الله عليه فقد وضعه الله على قمة لا يطار لها
على جناح ولا يسعى على قدم ، ولكن الحديث وضع المسلمين على
قمة تتقاصر دونها حضارات الشرق والغرب .. كيف كان يمكن أن
تأتى تشريعات السحر في صيغة أفضل من هذا الحديث ؟!

وقد رد الإمام النووي على أسلاف الشيخ من الذين رأوا في سحر
رسول الله نبلا من القمم فقال بعد أن أورد نص صحيح مسلم :
« حدثنا أبو كريب حدثنا ابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت
سحر رسول الله ﷺ يهودى من بنى زريق .. » الحديث . ثم قال
الإمام النووي : « وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر
فزعم أنه يحط بمنصب النبوة ويشكك فيها ، وأن تجويزه يمنع الثقة
بالشرع ، وهذا الذى ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية

قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك وتجوز ما قام الدليل بخلافه باطل فأما ما يتعلق بأمور الدنيا التي لم يبعث بسببها ولا كان مفضلاً من أجلها وهو مما يعرض للبشر فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له ..» (صحيح مسلم بشرح الإمام النووي — دار الكتب العلمية — لبنان) .

فأنت ترى أن لسنا وحدنا السلفيين .. بل للمبتدعة أيضاً أسلافهم ! وبهذه المناسبة فإن فضيلة الشيخ « محمد متولى الشعراوى » وهو من هو فى دفاعه عن السنة ، عالج حديث السحر من زاوية أخرى لم أتعرض لها فأحببت أن أثبت ما قاله داعياً الشيخ الغزالي لقراءته لعل الله يهديه ويشرح قلبه لأحاديث رسول الله التى ثبتت صحتها . بعد أن أكد فضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى صحة الحديث قال :

« إلى هنا وينتهى الحديث الذى ورد فى البخارى ومسلم .. عما حدث لرسول الله ﷺ .. وقد أثار هذا الحديث جدلاً كبيراً بين العلماء .. ونحن نقول .. المهم هو توثيق الحديث .. أما كونهم سحروا رسول الله عليه السلام .. فلا شىء فى ذلك ، الله تبارك وتعالى تحدى الإنس والجن فى القرآن الكريم .. فقال عز وجل : ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ [الإسراء — ٨٨] . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله

وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿٣٨﴾ [يونس - ٣٨].

إذن فالتحدى فى القرآن الكريم هو للإنس والجن .. ماذا فعل الإنس ؟ .. وماذا فعل الجن ؟ .. الإنس قاوموا رسول الله ﷺ وآذوه وعادوه .. وعذبوا المؤمنين وجأهروا بالعداء للدين .. وحاولوا منع الناس من الإيمان .. وتآمروا على قتل الرسول ﷺ .. وأحبط الله أعمالهم فى كل هذا .

إذن الإنس فشل سواء فى مجاهرته بالعداء والأذى .. أو فى تبييته وتآمره فى الخفاء . بقى أن يستخدم الإنس قوة أخرى يستعين بها .. بشرط أن تكون أقوى من الإنس وأكثر قدرة .. أى أن هذه القوة التى يستعان بها لا بد أن تكون من جنس آخر غير الإنسان .. لأن قوى الإنسان فشلت أمام مواجهة الدعوة لدين الله .. والتآمر على رسوله ﷺ ..

وكانت هذه القوى هى قوة الجن . فأراد الله عز وجل أن يتحداهم بفشل قوة الجن أيضا .. ليعرف الناس جميعا .. أن قوة الإنس لن تنال من رسول الله ﷺ .. وأن قوة الجن لن تنال أيضا من رسول الله ﷺ . ماذا فعلوا ؟ ..

استعانوا بالسحر .. فدلله الحق سبحانه وتعالى على أنهم سحروه .. وأرشده جل جلاله إلى مكان السحر .. وأبلغه عمن قام بسحره .. لتعرف الدنيا كلها .. أنهم لن يقدرُوا على محمد ﷺ .. سواء جأهروه بالعداء .. أو أخفوا هذا العداء وتآمروا عليه لقتله .. أو استعانوا بجنس آخر هو الجن .. لأن الله سبحانه وتعالى الذى

أرسله .. يكشف له ما يحدث ويطلع كيد الذين يتآمرون .. سواء كانوا إنسا أو جنا . إذن كون محمد ﷺ سحره اليهود .. هذا ليس اتهاما ضده .. ولكنه تحد للإنس والجان بأن يفعلوا أقصى ما يستطيعون ضد رسول الله ﷺ .. والله جل جلاله سينصره عليهم .. والله سبحانه وتعالى قد أدخل الجن في التحدى بالنسبة للقرآن ومنهج الإسلام ..

وكان لابد .. تحقيقا لهذه الآيات الكريمة .. التى تحدث الإنس والجن .. أن يتم تحد حقيقى لقوى الجن .. فيحاولون النيل من رسول الله ﷺ ويفشلون .. وان يكون هذا معروفا .. ليس للجن وحدهم .. ولكن للإنس والجن .. لأن رسول الله ﷺ مرسل للآثنين .. الإنس والجن .. فلا بد أن يعرفوا أن كيد الإنس والجن مجتمعين لن ينالوا منه شيئا .

ولو أن هذا السحر حدث خفية .. وليس علنا بحيث عرف به الناس .. لقالوا ان القرآن قد تحدى الإنس والجن .. والإنس دخلوا فى التحدى وفشلوا .. ولكن الجن لم يدخلوا .. وربما لو كانوا قد دخلوا فى التحدى لنجحوا .. فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت لهم أن الجن لو دخلوا فى التحدى لفشلوا . كذلك قصة السحر .. فلو أنهم لم يستعينوا بالسحر والجان .. لقالوا لو استعنا بالسحر لكانت لنا الغلبة عليه .. ولو أن الحق سبحانه وتعالى أبطل السحر قبل أن يقع .. لقالوا لو أن السحر لم يطل .. لكان لنا معه شأن آخر .

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يستعان عليه بالسحر والجان .. وان تسحر عينا رسول الله ﷺ .. كما سحرت عينا

موسى من قبل .. ثم يدلّه الله جل جلاله على مكان السحر ليطّله ..
وعلى من قام بالسحر ليعرفه المسلمون جميعا .

إذن هذه مسألة ليست على رسول الله وإنما هى له .. وهى تثبت
لنا أن الجن قد دخلوا فى التحدى ضد الرسول الكريم .. وأن الله جل
جلاله نصره عليهم .

على أن السحر الذى تعرض له رسولنا الكريم ﷺ .. كان من
نفس نوع السحر .. الذى تعرض له موسى عليه السلام .. وهو
سحر التخيل .. الذى يؤثر على العين وحدها ولا يؤثر على العقل أو
القلب ولا باقى أعضاء الجسم .. أى أن التخيل بالبصر فقط ..

ولعلنا بذلك نكون قد أوضحنا خواطرنا حول ما فهمناه من قصة
سحر رسول الله ﷺ (انتهى كلام الشيخ الشعراوى من كتاب
السحر والحسد تأليف محمد متولى الشعراوى — مكتبة الشعراوى
الإسلامية — أخبار اليوم ١٩٩٠) .

وفضيلة الشيخ الشعراوى يشير هنا إلى قوله تعالى عن موسى عليه
السلام عندما واجه سحرة فرعون وألقوا العصي والحبال : ﴿ فَإِذَا
حِبَالُهُمْ وَعُصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ
خِيفَةً مُوسَى ﴾ [طه : ٦٦ - ٦٧] .

فموسى عليه السلام دخل فى دائرة سحرهم من ناحية النظر ،
حتى رأى ما رآه العامة .. ومرة أخرى من حقى أن أسأل الشيخ ،
كيف قبلت أن يسحر النبى موسى حتى يرى الحبال والعصى تتحرك
وتمشى أو تسعى .. وثمرت على حديث سحر محمد .. ألا يتيح ذلك
للبعض أن يقولوا الشيخ يرفض الآية ولكنه استسهل رفض الحديث ،

ولو قبلنا منطقته بأن القول بسحر نبي هو نيل من القمم ، فسيكون ذلك نيلا من القرآن ذاته ١٩

وكيف يقف التساؤل في حلقى ، وهذه ثالث مرة يعرض أو حتى يعارض فيها الشيخ نصا قرآنيا ، من خلال الطعن في حديث .. مرة ثار أن تكون دية الذكر مثل حظ الأنثيين .. وهاج على حديث يبيح الضرب في تفسيره ، مع أن الحديث لا يبيح ذلك صراحة وإنما الآية هي التي تفعل .. ومرة رأى أن القول بجواز السحر على نبي نيل من القمم .. والقرآن قال : ﴿يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ .. هذا إذا نحينا قضية التمني والقاء الشيطان ...

رباه إلى أين تدلى الشيخ ١٩

هذا عن حديث السحر كما تناولته منذ أكثر من عشرين عاما . ولقد مضيت خطوة في هذا الاتجاه بعد عشرين سنة عند مناقشتي لحديث الذبابة في رسالة التوحيد يناير ١٩٨٦ فقلت :

«واليوم — أضيف أنه بنفس المنطق يمكن أن ننظر لحديث الذبابة ، فلاشك أنه كان إعجازا في عصره ، فما كان الميكروب قد عرف ولا اكتشف ، ولا كان الناس يعرفون سببا للأمراض التي يصابون بها ، ولا خطر بيال عالم ولا كاهن أن الذبابة تنقل «الموت» أو السم .. فهذا العلم بما تحمله الذبابة من سموم للناس ، من خلال تلويث طعامهم ، هو من علم النبوة ، ولا يمكن أن يكون هناك تفسير آخر له .

والحديث علم الناس أيضا أو دفعهم لحماية طعامهم من الذباب ، فهو حديث يحض على النظافة والوقاية ومحاربة الذباب ، أو هذا ما

يفهمه العقل السليم وليس العقل المنحرف . فإن معرفتك أن عضه الكلب لها دواء ناجح هو العشرون حقنة إياها ، لا يغريك بوضع يدك في فم الكلاب لأخذ الحقن !! بل الأخرى أن يجعلك تبتعد عن الكلاب وعضاتها ! .. ولاشك أن النفس العادية تنفر من امساك الذباب وغمسه ، فالأخرى هو تجنب الذباب أساسا ، وبخاصة أن الحديث يطلب مطلباً عسيرا هو امساك نفس الذبابة التي غالبا ما تسقط وتطير ..

فالحديث « في عصره » كان معجزة ، وكان تعليما صحيا ووقائيا .. ولكن ما الموقف من الحديث الآن ؟ ..

أعود لحديث كنت قد أثرتة أيضا في كتاب « الحق المر » المشار إليه وهو حديث الحباب بن المنذر ولم يفهم وقتها ماذا أقصد منه ، ثم رأيت أن أوجل شرحي أو شغلت عنه ، حتى كانت هذه المناسبة . و « الحباب بن المنذر » هو الذي اعترض على موقع المعسكر الذي اختاره الرسول في غزوة بدر .. فاستجاب الرسول لما قدمه الحباب من أدلة على خطأ الاختيار ، وأخذ باقتراحه ونقل المعسكر .

وقد فهمها البعض على أنها دليل ديموقراطية الرسول ، ومازال هذا البعض يستشهد بها على هذه الديمقراطية ! وهو يكشف مدى فهمهم للديموقراطية أو الشورى التي يتشدقون بها .. وأى ديموقراطية في استجابة رئيس الدولة لمعلومات مقنعة يقدمها خبير عسكري ؟ ! هذا هو التصرف الطبيعي من رئيس مسئول يعنيه مصير قومه ، والنصر في المعركة .. ولكن لأن قومنا عرفوا قادة على استعداد لخسارة الأوطان ولا يقبلون نصيحة ! فقد قصر فهمهم على الفرحة

بديموقراطية الرسول .

لقد استشهدت وقتها بالحديث للتدليل على نوع التربية التي ربي الرسول عليها المسلمين حتى أصبح الجندي يعترض على القرار الذي لا يرى فيه حكمة حتى ولو كان صادرا عن رسول الله ذاته .. ثم طريقة السؤال والحوار والاستجابة السريعة للصواب من جانب رسول الله . وقلنا إن هذا كان درسا للطغاة والشعوب المستضعفة ، فمادام التصويب ممكنا لرسول الله ، فمن ذا الذي يدعى العصمة بعده أو يتعالى على النصيح ؟!

أما الشورى فالأدلة عليها أكثر من أن تحصى ، وهي شورى موجبة وليست استمزاجا ولا في اطار شاوروهن وخالفوهن فالنبي يقول «أشيروا علىّ أيها الناس» وهو قد أطاع رأى شباب المدينة بالخروج في غزوة أحد رغم أن رأيه كان ضد الخروج وأثبتت تجربة أحد ، أن رأيه كان الأصوب ، ولهذا السبب نزلت «آية الشورى» بعد غزوة أحد بالذات ، لكي لا يسيء مسلم فهم 'ج' جري في أحد ، أو يسيء مستبد استغلاها فيقول إن الهزيمة كانت بسبب الشورى !! والحقيقة أنهم هزموا بسبب مخالفة الخطة العسكرية التي وضعها النبي ..

وهناك قول الرسول لأبي بكر وعمر «لو أجمعتما على أمر ما خالفتكما !» ..

وأشرنا إلى استشارتهما في أسرى بدر فاختلفا ووافق رأى الرسول رأى أبي بكر ولكن السماء أيدت اقتراح عمر بن الخطاب .

كان رسول الله يطلب رأى الناس ، عن طريق المندوبين وليس بالاستفتاء الارهاى الذى يصيح فيه البعض : آمين ! . فيضطر الجميع للموافقة أو السكوت .. أو على طريقة : موافقون ؟ موافقون !

حديث الحباب بن المنذر له مفهوم آخر غير الديمقراطية ، فالحباب بن المنذر سأل الرسول : هل هذا أمر من الله لا نتحول عنه أم اجتهاد منك ؟

سؤال واضح صريح معناه أن هناك نوعين من الأوامر تصدر عن رسول الله أوامر إلهية .. وأخرى هى اجتهادات من فكره كبشر .. والنوع الأول فقط هو الذى يلزمنا قبوله بدون مناقشة وما عدا ذلك فهو رأى والرأى مشترك كما قال عمر فى مناسبة أخرى .

هذا هو نص المحادثة كما جاءت فى جميع كتب السيرة .. ولم يسجل التاريخ أن صحابيا علا الحباب بسيفه قائلا : ويحك «وما ينطق عن الهوى» .. بل كان رسول الله أول من تكلم بصدق النبوة :

بل هو الحرب والرأى والمكيدة .. !

أى مجرد اجتهاد منى كبشر ، مسئول عنكم ، وفى حدود معلوماتى العسكرية . وهنا لم يتردد «الحباب بن المنذر» لحظة واحدة ... بل قال على الفور : فليس هذا بمنزل ! ..

ومهما تلطفنا ومهما خفقت قلوبنا إكبارا ومحبة وإعزازا ، فعبرة الحباب هذه لا تعنى فى زمانها ولا فى أى زمان مابقيت اللغة العربية مفهومة ، لا تعنى إلا : فهذا الرأى الذى ارتأيت ليس بالرأى

الصائب يارسول الله ! ..

ولاداعى للفرع ، فهذا هو المعنى الذى أراده الله ورسوله ، وهو اثبات أن العصمة لا تكون إلا فى الأمور التى نزل بها الوحي على رسول الله . وإلا فإن الذى دبر لقاء بدر على غير موعد وأنزل الملائكة مسومين يقاتلون مع رسول الله ، ما كان يعجزه أن يرشده للموقع الممتاز لنزول الجيش ، سبحانه وتعالى وغفرانه ، وإنما هو حديث للتعليم وربما استنتج منه ابن تيمية ، قاعدته « أنه لا أحد يطاع لذاته إلا الله ، أما الرسول فإن طاعته هى طاعة الله » !

وقد قال رشيد رضا : « وإنما تجب طاعة الرسول فيما يبلغه ويبينه . من أمر الدين عن الله تعالى وما ينفذه من شرعه ، دون ما يستحسنه فى أمور الدنيا بظنه ورأيه ، فالطاعة الذاتية إنما هى لله ، ولذلك قال تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء - ٨٠] فطاعة الرسول ثم طاعة أولى الأمر من الأمة تتبع لطاعة الله التى أوجبها للمصلحة تنفيذاً للشريعة ، على أن الرسول معصوم فى تبليغ الدين وإقامته ، وقد جعله الله أسوة حسنة لأئمة ، وكان الصحابة على هذا يراجعون النبى فيما يقوله برأيه فى المصالح العامة ، وكان يرجع عن رأيه إلى رأى الواحد منهم » .

« فهو ممتاز على البشر بالوحي إليه ولكنه فيما عداه وعدا ما يستلزمه بشر يجوز عليه الأعراض البشرية ، ويحتاج إلى غيره فى الأمور الكسبية ، وكونه أكمل لا يقتضى أن يحيط بكل شئ علماً ويقدر على كل عمل فإن هذا لله وحده » قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك » [الأنعام - ٥٠]

وسواء أخذنا ما جرى في غزوة بدر على أنه تدبير إلهي لتلقين المسلمين عبر الأجيال درسا ، أو أنه كان مجرد سابقة تاريخية لحضارة حرة الروح والفكر ، فالمهم أن ما جرى قد حدد مسار الفكر الإسلامي ، وأرشدنا إلى الطريق السليم في التعامل مع السنة .. ونضيف هنا حادثة تأيير النخل .. فقد أمر الرسول بعض معاصريه بعدم تلقيح النخل .. قائلا : لو تركتموه لأثمر .. ففعلوا ولم يثمر .. وجاعوه وقالوا : لم يثمر يا رسول الله ؟! فلم يزد -بأبي وأمي - على الاعتراف بخطئه بقوله : «أنتم أعلم بأمور دنياكم» .

ونحن نسلم ونؤمن بأن كل هذه الوقائع كانت دروساً إلهية مدبرة قصد بها تعليمنا . فإن الذي يلهمه خبر الأولين والآخرين ، والذي علمه في القرن السابع أن جناح الذبابة يحمل سما ، وأن الطاعون ينتقل بالعدوى ، وينتشر بالحركة من بلد لآخر ، ما كان ليضن عليه بخبر تلقيح النخل ، وإنما أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا من عصمته كنبى يوحى إليه ومن خطئه كبشر .. وهنا نتساءل : تعليمنا ماذا ؟ — أن الرسول يمكن أن يخطئ في أمور الدنيا !

— عظيم .. وما فائدة ذلك الآن ؟!

وقبل أن نجيب نضيف : لو أن المسلمين ظلوا في موقعهم في غزوة بدر ، ولم يعترض الحباب بن المنذر .. أكان نزول الجيش بعيدا عن المياه يصبح سنة ؟ .. أو لو أن رسول الله توفاه الله قبل موعد إثمار البلح أكان تأيير النخل يغدو مكروها ، وتغدو النخلة ملعونة ، لأنها لا تثمر إلا إذا خالفت «سنة رسول الله» ؟ .. وكان الفقيه المتحدث في الاذاعة والتليفزيون يتكئ ويتمايل ويقول : عدم تأيير النخل

« حديث صحيح مجمع عليه » ونستورد البلح من كاليفورنيا ؟! أو ان يتقدم شيخ تقدمي فيقول الحديث غير صحيح ومدسوس مهما يكن سنده ، لأنه معتل المتن ، لأن رسول الله لا يمكن أن تخفى عليه الآية الكريمة .. « وأرسلنا الرياح لواقع .. » [الحجر - ٢٢] أو لا يعقل أن تكون معلوماته عن النخل اقل من معلومات معاصريه ، وهذا الحديث يتعارض مع ما قام به ﷺ في عملية زرع نخل مكاتبة سلمان الفارسي .. والحديث إنكار للأسباب .. انخ وعليه فالحديث مرفوض ولا بد من حذفه من الصحاح .. ١٩

لا .. ما ندعو إليه خير وأصح سبيلا ..

لا بد من الرجوع إلى أول هذا الحديث ، لنكشف المعجزة التي أرادها الله وعلمها لنا رسوله .

فالرسول يعلم بوحى الله أن سيكذب عليه ، وستصنع أحاديث تنسب إليه ، وسيقف المسلم حائراً أمامها ، هل « يعقل أن يخالف حديث الرسول حقائق الحياة المتفق عليها ؟ » فأراد الله والرسول التخفيف عن هذا المؤمن ، وحمايته من المزورين المدلسين .

فكانت هذه الحوادث التي تعلمنا أن بعض الأحاديث المؤكدة والتي وقعت في حياة الرسول « أخطأ » فيها الرسول في بعض الأمور الدنيوية .. ولم يجد الرسول في هذا ما يشبكه الناس ، ولا رأى ذلك الصحابة ولا التابعون ، ولا رآه كتاب السنة ومؤرخو الإسلام ، وما كان أسهل حذفها نهائياً .. فقد مرت عشرة قرون ، ولا مرجع عن الإسلام إلا كتابات المسلمين ، ولو أحس حاكم مسلم ولا أقول فقيه أو عالم حديث ، أن هذه الوقائع التي ثبت فيها « خطأ » الرسول ،

تشكك في أمور الدين ، لما أثبتها ولأمر بقتل قائلها .

ومرة أخرى لا يفزعك أيها المسلم كلمة «أخطأ» منسوبة إلى رسول الله .. فهو ذاته صلوات الله عليه الذي استخدمها وقال «إنما أنا بشر مثلكم أخطيء وأصيب» .. وهو ذاته الذي فرق بين ما يأمرنا به في أمور ديننا وما يراه لنا من أمور دنيانا . فاعتبر الشق الأول ، معصوما ، لا خيار فيه ولا اعتراض .. وقد قال ابن خلدون في أحاديث التداوى : «إن صحت عن رسول الله ، فقد بعثه الله هاديا يعلمنا ديننا ولم يبعثه طبييا مداويا لعل الأجساد» ! فهي من «معلومات عصره المتداولة» .. فكتاب الله هو وحده الذي لا يحتمل الخطأ ولا القصور .. وهذا ما فهمه الصحابة فلم يثر حديث النخل في نفوسهم أى شك عن عصمة الرسول في أمور دينهم ، وكذلك تصرف المسلمون في غزوة بدر ، فهم لم يشكوا في تعاليم رسول الله ، لأن الحباب بن المنذر أثبت أنه يفهم في مواقع نزول الجيوش أفضل من الرسول صلوات الله عليه ، ولاسلموا بحكمة الحباب على طول الخط ، بل إن الحكمة الإلهية جعلته هو نفسه يردد أسوأ رأى في اجتماع السقيفة عندما قال «منا أمير ومنكم أمير» فهو لم يكن إلا أداة لتنفيذ العظة الإلهية التى نضيعها نحن اليوم ولا نستنير بها .. وكذلك لم يشك عمر رضى الله عنه في عصمة الرسول ، لأن الوحي صوب رأيه هو في أسرى بدر ! وهو درس للطغاة والأكاسرة وشعوبهم المستضعفة التى تأخذها العزة بالإثم فتتصور أن اعترافها بالخطأ ولو مرة ، تشكيك في عبقرية الزعيم الخالد !!

وأحب أن أقف هنا حول خطأ الرسول في أمور الدنيا ، خشية أن يظن من يختطفون الكلمات ، أن الرسول صلوات الله عليه كان ساذجا يخطئ في كل ما لا يُوحى به إليه !!

حاشا لله وإنما هي معجزة تبرز تفوق وكمال الوحي ، وليست دليل نقص الرسول فهو بلا جدال أعظم عبقرية عرفتها البشرية في معالجة الأفراد والقضايا والجماعات ، والذي قال ان محمدا يستطيع أن يحل مشاكل العالم على فنجان قهوة لم يخطئ ولا كان يؤمن بنبوة محمد ، وكذلك الذي صنفه صلوات الله عليه وسلامه ، الأول في أعظم مائة غيروا تاريخ البشرية ، كان يناقش أعماله وقراراته كبشر .. وإنما شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تفوق السماء وأنها هي وحدها المعصومة . فحتى هذا العبقرى إذا ما احتكم لعقله وحده شابه القصور أحيانا ، واحتمل رأيه الصواب والخطأ . وأضرب مثلا : فقد أجمع العرب والعجم على أنه صلوات الله عليه كان أبلغ من تكلم بالعربية ، ومع ذلك فإن من يقرأ أحاديثه وخطبه صلوات الله عليه ، ويقارنها بمحكم التنزيل في القرآن يحس فعلا أنه ينتقل من الأرض إلى السماء .. فهو ، أكمل البشر .. غير كامل في مواجهة الكمال المطلق سبحانه وتعالى ..

وباختصار إن حديث الذبابة قد يكون صحيحا ..

ولكنه غير ملزم لنا ..

لأنه يخالف العلم المتاح لنا .

وهو غير ملزم إذ ليس في القرآن ما ينطبق عليه .

وقد يكون مجرد رأى لرسول الله على ضوء المعلومات المتاحة في

عصره أو قصد به — كما قلنا — التنبيه لخطر السم الذى يحملة .
الذباب ، والحض على الحرص منه والتخويف من الطعام الذى حط
عليه الذباب .. وانتفت الحكمة الآن بعدما عرفناه عن أخطار
الذباب ..

غير ملزم ، إذ إن حكمته غير مفهومة لنا ، وربما يكون قد قصد
بها جيل غير جيلنا وزمان غير زماننا .

وهذه أهمية الاعتراف بصحته ، لكى تبقى للأجيال من بعدنا
فرصة إعادة الاجتهاد على ضوء ما يجد من حقائق ويكتشف من علوم
وأدلة . فهناك الكثير من الأحكام والنبوءات والمعجزات آمن بها
السلف دون دليل مادى أو عقلى ، ودون أن يؤثر ذلك فى تعاملهم
مع حقائق الحياة ، ثم اكتشفت حقائقها وفهم معناها ، بتقدم المعرفة
وتطور العلوم الوضعية ، ولكن ما من جيل مطالب باتباع مسلكية
خاصة فى التعامل مع الكون المادى ، إذا ما كانت فوق فهمه أو
متعارضة مع الامكانيات والمعرفة المتاحة فى عصره ومن هنا تراهم
يقولون « حديث صحيح وغريب » !

وليس فى كتاب الله ، وما عرفنا من سلوك النبى والصحابة ولا فى
العلم الحديث ما يعزز التداوى بأجنحة الذباب ! وقد شهد الرسول
للمسلمين « فى عصره » بأنهم أعلم بأمر دنياهم . (نشرت فى رسالة
التوحيد ٣ ص ٩٣/٩٦ يناير ١٩٨٦) .

هذا ما قلناه قبل أربع سنوات من كتاب الشيخ ، ونضيف اليوم
أن الحديث الصحيح المطابق للقرآن ، لا يقبل النقاش .. وملزم إيماننا
وعملا .

وكذلك حديث الآحاد الذى لا يخالف نصا قرآنيا ولا سنة ثابتة ، وإنما فيه مصلحة واضحة فيعمل به تبركا وانتفاعا .

أما حديث الآحاد أو الذى فى سنده مغمز ويخالف القرآن أو يخالف حديثا عليه إجماع فلا يؤخذ به ..

الحديث الصحيح السند ، إن بدا لنا مخالفته لظاهر تفسير القرآن أو سنة ثابتة أو المعقول فى عصرنا من العلوم والتجارب ، فلا يجوز أبدا الطعن فى صحته أو الازدراء بمضمونه . وإنما نعمن الفكر فى استنباط حكمته ، فقد تكون صيغته أملت ظروف الزمكان (الزمان فى المكان) والحاجة إلى افهام جيل النبوة على ضوء المستوى التكنولوجى والعلمى المتاح لهم ، أو ليدخر مضمونا يفهم ويصلح فى عصر غير عصرهم . فإن أمكن استنباط هذا المعنى عمل به وانتفع ، وإلا تركنا الحديث حتى يأتى جيله الأقدر على فهمه .. دون أن نصادر حقهم فى الاجتهاد بحذف الحديث من الصحاح كما يطالب الشيخ ، كما لا يجوز أن نفر فى كل ما استعصى علينا فهمه إلى الطعن فى الحديث ، هذا موقف لا يتفق مع احترام السنة ولا احترام التاريخ أو العلم ..

وكما قلنا إن منهاج الشيخ خطير يمس حتى القرآن ، خذ مثلا قوله تعالى .. ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ [النازعات - ٣٠] لقد مرت قرون و «العلماء الراسخون» فى الفلك يرون الأرض منبسطة فلما تقدموا قالوا إنها كروية فلم يكتشف شكلها البيضاوى ونقصها من أطرافها إلا حديثا جدا .. فهل كان بوسع علماء القرون الماضية أن يرفضوا الآية بمنطق الشيخ : صحيح السند معتل المتن !! لا .. لا ..

يجب التدبر .. مثل حديث « إن الأنوثة تنشأ من علو ماء الانثى على ماء الرجل !! (التعجب للشيخ ص ٢٠٤) وقد حمل الشيخ على الحديث استنادا إلى مكتشفات العلم الحديث التي اثبتت « على وجه اليقين أن الجنين يتكون من حيوان منوى وحيد يَخترق بويضة المرأة وهو الذى تنشأ عنه الذكورة والانوثة فليس لماء المرأة دخل فى هذا » .

هل يعلم الشيخ أن العلماء الراسخين من غير المسلمين فى عصر الوحي وبعده بمئات السنين كانوا يقولون مثل قوله هذا .. « ماء المرأة لا دخل له » فى الانجاب كله ! فالذكر يقوم بالمهمة كلها ولا يزيد دور المرأة عن الصدفة أو الحفرة أو حتى بعض الحشرات التى تضع فيها حيوانات ارقى بيضها حتى يكتمل نمو الجنين .. فكان حديث ماء الرجل وماء المرأة معجزة إلهية لأنه تحدث لأول مرة عن دور المرأة فى تكوين الجنين بل وجعلها مساوية للرجل فى صنع هذا الجنين بارادة الله ..

وإذا كان إنكار دور المرأة ينبع من الجهل وأيضا من الرغبة العامة فى تلك العصور فى انتقاص مكانة المرأة .. إلا أننا نقف عند الجانب المعجز من الحديث ، ولا نستحلبه للاشادة بتكريمه للمرأة .. ليس هذا خلقنا ..

أما حكاية جنس الذكر فالحديث لو تأملنا قليلا فى ألفاظه وزمانه لاكتشفنا أنه لا يخالف العلم بل يسبق العلم .. فالمعروف علميا — نعم علميا لعل الشيخ يرضى — ان ماء الرجل يتضمن مرة عنصرين موجبين أو رمزين للذكورة ومرة عنصرين : موجبا وسالبا أى واحد

ذكورة وواحد انوثة أما البويضة فمأؤها سالب دائما ، أو انوثة .
فإذا كان الحيوان المنوى الفائز باقتحام البويضة يتكون من مذكرين ،
غلب انثى البويضة وجاء المولود ذكرا .. وإن كان فيه السالب
والموجب ، غلب ماء الانثى وجاء المولود انثى .. فلماذا أعزك الله
أخذت الحديث بالتفسير المتواضع الذى اجتهد به الناس قبل تقدم علم
البيولوجى فتحدثوا عن ماء الانثى وكأنه هذا الماء الذى يرطب
الرحم .. لماذا لا تأخذه بالمعنى العلمى الآن وهو تغلب
كروموزومات الانوثة على كروموزومات الرجولة .. ؟! لماذا لا نبدأ
بالتدبر والتفكر قبل الاستنكار والاستهزاء والتعالى والرفض
والانكار .. ليس هذا خلق العلماء ولا أقول علماء المسلمين . وتأمل
معجزة الآية الكريمة : ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة
إذا تمنى﴾ [النجم : ٤٥ - ٤٦] فالقرآن أعلمنا قبل العلم أن الذكورة
والانوثة ، يتحكم فيها منى الرجل .. وجاء الحديث ينفى شبهة أن
يظن أحد أن ذلك يمتد إلى الجنين ذاته ذكرا كان أو انثى فأكد
مشاركة المرأة .

الأصنام والتماثيل

ويسلك الشيخ مسلك المنبت ، أو بالأحرى ، يمسك العصا من منتصفها ، فيبيح التصوير ويحرم التماثيل ، خشية أن يعبدها الناس ، ويقسم إنه رآهم بعينه يعبدون التماثيل في جنوب آسيا ! ولماذا لا يعبدون الصور ؟! وهل عبدوا بوذا لأنهم صنعوا له تماثلاً أم صنعوا له تماثلاً لأنهم يعبدونه ؟!

ونحن نبدأ بسؤال الشيخ : « ماذا تقول ياسيدنا في تماثيل سليمان التي كان يعملها له الجن . ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ— ١٣] .. المولى عز وجل اعتبر تسخير الجن لسليمان في صنع ما يشاء من تماثيل من النعم التي تستوجب الشكر وبنو إسرائيل أحدث عهداً منا بعبادة الأصنام فقد عبدوا العجل ، ولكن سليمان عليه السلام سخر الجن في عمل التماثيل ولم يعبدوها أحد في عصره في حدود علمنا .. (وجاء في تفسير ابن كثير : « قال عطية العوفي الضحاك والسدي : التماثيل الصور قال مجاهد وكانت من نحاس وقال قتادة من طين وزجاج ») .

إن دقة اللغة العربية تفتح مجالاً كبيراً للتفكير في هذه القضية ، وقد فكرت في هذا الأمر وخطر لي الآتي ، فأعمل فيه الفكر لعل الله يوفقك ويزيل الشبهة من فكري وقلبك ..

أقول إن التمثال لا ضير فيه إلا إذا أصبح صنماً ، بأن يعبد أو يرمز به لإله مزعوم .. ولذلك كان الجن يعملون لسليمان تماثيل وليست

أصناما . ولم يكن ذلك محرما ولا مكروها . ثم تأمل قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام التي وضحت هذا الأمر بما لا مزيد عليه وما لا يترك مجالا للشك ، فعندما ذهب عليه السلام لمحاورة أبيه وقومه ، لم يكن من لطف المحاورة أن يبدأهم بالاتهام فيسألهم : لماذا تعبدون الأصنام ؟!

هذا استفزاز ومصادرة على المطلوب كما يقولون ولذلك تلطف هكذا : « إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » . [الأنبياء - ٥٢] .

لم يقل ما هذه الأصنام .. بل ما هذه التماثيل ؟ والفرق واضح .. بل أعنى لابد أن تكون هناك تفرقة وإلا لما استخدم لفظة التماثيل بالذات .. فرد قومه : « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » [الأنبياء - ٥٣] .

هنا اعترفوا هم أنها أصنام بكلمة « عابدين » ، ولو قالوا مجرد فن أو حتى إحياء لذكرى بعض أبطال أمتنا واجدادنا لكان الحديث قد اتخذ اتجاهها آخر في إطار العكوف وليس العبادة .. ولكن بكلمة عابدين جابههم إبراهيم على الفور : ﴿ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ [الأنبياء - ٥٤] ثم توعدهم ﴿ وتالله لأكيذن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ [الأنبياء - ٥٧] صدق الله العظيم .. تأمل حكمة التنزيل ودقة التعبير .. هي تماثيل مثل التماثيل التي صنعت لسليمان فلما اقروا بعبادتها إذن فهي أصنام .. واجبة التحطيم .

حقا ما فرطنا في الكتاب من شيء ولكن لا يتدبرون .
ثم أفرد الشيخ فصلا في مناقشة القدر واثبات أن الإنسان مخير

وليس مسيراً، وقد نهينا عن هذا المبحث ، وأنا أتحدى الشيخ إن استطاع في مناظرة عامة أن يثبت ذلك ، هذه من القضايا التي لا يستحسن للمسلم الخوض فيها لأنها أعيت جميع الفلاسفة والمتكلمين . فهي من خصائص الله وصفاته سبحانه وتعالى ، وكما أن ذاته لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول فكذلك مشيئته وتصرفاته عز وجل ، الإنسان مسير ومخير معا ، ويظلم نفسه من يحاول أن يفهمها ، تماما كمن يحاول أن يفهم قول علماء الفلك ان الكون محدود ولا نهائى أو ان الكون يمتد بسرعة هائلة .. أين يمتد الكون ؟ هذه قضايا شغلت بال أهل المنطق الأرسطى عندما كان السالب سالبا والموجب موجبا ولا يجتمعان ، أما اليوم فالفكر متقدم وهو يعترف باتحاد الاضداد ورغم ذلك تبقى قضية القدر فوق منطق عقلنا القاصر ..

وقد صدر الإمام مالك كتاب القدر في موطأه بباب النهى عن القول بالقدر أورد فيه الحديث التالى : قال رسول الله ﷺ : قال : تحتاج آدم وموسى فحج آدم موسى . قال له موسى : أنت آدم الذى أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة ؟ فقال له آدم أنت موسى الذى أعطاه الله علم كل شئ واصطفاه على الناس برسالته ؟ قال نعم . قال : أفتلومنى على أمر قد قدر على قبل أن أخلق ؟ أخرجته مسلم . نعم ماذا يقول الشيخ فى هذا الحديث ، وهب أنه ضعفه .. ألسنا نعلم أن الله سبحانه وتعالى أخبر الملائكة قبل خلق آدم أنه يخلقه للأرض عندما قال إني جاعل فى الأرض خليفة ! أم نأخذ بتبرير الشيخ وهو أن هذا القول من رب العزة هو نتيجة الاطلاع على المستقبل ومعرفة ما سيفعله آدم ؟ هذا تفسير يجعل الله قارئ مستقبل

لا أكثر سبحانه وتعالى عما يصفون .. ! وإنما الأمر كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أو كما قال في حديث الطاعون .. نعم نفر من قضاء الله إلى قضاء الله .. رأيت لو كان لك إبل ، فهبطت واديا له عدوتان . إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة ، أليس ان رعيت المخصبة رعتها بقدر الله ؟ وإن رعيت المجدبة رعتها بقدر الله ؟ (مالك والبخاري ومسلم) فمهما فعلنا فهو بقضاء الله ، ولكن لأن الله لم يطلعنا على قضائه ، فإن علينا أن نتحرى ونحاول الأفضل دينا ودنيا ، ثم إننا نؤمن بعزته وجلاله ، وقدرته ، وعدله ، ورحمته وجبروته ، ونسلم تسليما مطلقا لارادته .. ونتبع تعاليم نبيه لأن العقل والمنطق أثبتا ان في هذه التعاليم صلاح دنيانا أو لأن هذا يرضيه وأمر به عز وجل . ولكن لا نعتبر أنفسنا في موقع الدائن لرب العزة ، نحمل فاتورة أو صكا بافعالنا واجب الدفع والاستحقاق يوم الحساب ، وإلا شكواناه في محكمة العدل ! سبحانه وتعالى وإنما الأمر له إن شاء غفر وإن شاء عذب .. ان كان قد كتبنا في أم الكتاب من الأشقياء وعذبنا فذلك أمره ولا مرد لأمره ، وكيف نحاسب من السموات والأرض بيمينه ! كيف يستقيم الحديث عن عدل وحق ازاء الرب وهو الذي ألزمننا ورضينا بأن نحمده وحده على المكروه كما نحمده على المرغوب ؟! هو مولانا ونعم المولى .. على هذا كان أهل السنة ، ثم جاء المتكلمون فقالوا وأفاضوا ما لا يزعم الشيخ أنه زاد عليه حرفاً وظلت القضية قائمة ، حتى يحكم الله بينهم بالحق وهو خير الحاكمين .

غفر الله لنا ولك وبصرنا بما اخطأنا ، وهدانا لما هو أقوم ..

ملحق :

نص رواية الغرائق كما وردت في الطبرى

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فىنسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾ قيل ان السبب الذى من أجله أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ أن الشيطان كان ألقى على لسانه فى بعض ما يتلوه مما أنزل الله عليه من القرآن ما لم ينزله الله عليه فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ واغتم به فسلاه الله مما به من ذلك بهذه الآيات ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنا حجاج عن أبى معشر عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس قالوا جلس رسول الله ﷺ فى ناد من أندية قريش كثير أهله فتمنى يومئذ أن لا يأتیه من الله شىء فينفروا عنه فأنزل الله عليه والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى فقرأها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ أفرأيت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألقى عليه الشيطان كلمتين تلك الغرانقة العلى وإن شفاعتہن لترجى فتكلم بها ثم مضى فقرأ السورة كلها فسجد فى آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود فرضوا بما تكلم به وقالوا قد عرفنا أن الله يحيى ويميت وهو الذى يخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك قالوا فلما أمسى أتاه جبرائيل عليهما السلام فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال ما جئتك

بهاتين فقال رسول الله ﷺ افتريت على الله وقلت على الله ما لم يقل فأوحى الله إليه وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره إلى قوله ثم لا تجد لك علينا نصيراً فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم قال فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم فرجعوا إلى عشائرتهم وقالوا هم أحب إلينا فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن اسحق عن يزيد بن زياد المدني عن محمد بن كعب القرظي قال لما رأى رسول الله ﷺ تولى قومه عنه وشق عليه ما يرى من مباعدهم ما جاءهم به من عند الله تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب به بينه وبين قومه وكان يسره مع حبه وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما غلظ عليه من أمرهم حين حدث بذلك نفسه وتمنى وأحبه فأنزل الله والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى فلما انتهى إلى قول الله أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتهن ترتضى فلما سمعت ذلك قریش فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم فأصاخوا له والمؤمنون مصدقون نبیهم فیما جاءهم به عن ربهم ولا یهتمونه علی خطأ ولا وهم ولا زلل فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون بسجود نبیهم تصدیقاً لما جاء به واتباعاً لأمره وسجد من فی المسجد من المشركين من قریش وغيرهم لما

سمعوا من ذكر آلهتهم فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة فإنه كان شيعحاً كبيراً فلم يستطع فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها ثم تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقد زعم فيما يتلو أنها الغرائيق العلى وأن شفاعتهم ترتضى وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ وقيل أسلمت قريش فنهضت منهم رجال وتخلف آخرون وأتى جبرائيل النبي ﷺ فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتكم به عن الله وقلت ما لم يقل لك فحزن رسول الله ﷺ عند ذلك وخاف من الله خوفاً كبيراً فأنزل الله تبارك وتعالى عليه وكان به رحيماً يعزيه ويخفض عليه الأمر ويخبره أنه لم يكن قبله رسول ولا نبي تمنى كما تمنى ولا أحب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى في أمنيته كما ألقى على لسانه صلى الله عليه وسلم فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته أي فأنزل كبعض الأنبياء والرسل فأنزل الله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته الآية فأذهب الله عن نبيه الحزن وأمنه من الذي كان يخاف ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم أنها الغرائيق العلى وأن شفاعتهم ترتضى يقول الله حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى إلى قوله وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى أي فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده فلما جاءه من الله ما نسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه قالت قريش ندم محمد على ما كان من منزلة آلهتكم عند الله فغير ذلك وجاء بغيره وكان ذلك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسوله قد وقعا في

فم كل مشرك فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه حدثنا ابن عبد الأعلى
قال ثنا المعتمر قال سمعت داود عن أبي العالية قال قالت قريش لرسول
الله ﷺ إنما جلساؤك عبد بنى فلان ومولى بنى فلان فلو ذكرت
آلهتنا بشيء جالسناك فإنه يأتيك أشراف العرب فإذا رأوا جلساءك
أشراف قومك كان أرغب لهم فيك قال فألقى الشيطان في أمنيته
فنزلت هذه الآية أفرايتم اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى قال
فأجرى الشيطان على لسانه تلك الغرائق العلى وشفاعتهم ترجى
مثلهن لا ينسى قال فسجد النبي ﷺ حين قرأها وسجد معه
المسلمون والمشركون فلما علم الذى أجرى على لسانه كبر ذلك عليه
فأنزل الله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى
الشيطان في أمنيته إلى قوله والله عليم حكيم حدثنا ابن المنى قال ثنا
أبو الوليد قال ثنا حماد بن سلمة عن داود بن أبي هند عن أبي العالية
قال قالت قريش يا محمد إنما يجالسك الفقراء والمساكين وضعفاء الناس
فلو ذكرت آلهتنا بخير لجالسناك فإن الناس يأتونك من الآفاق فقراً
رسول الله ﷺ سورة النجم فلما انتهى على هذه الآية أفرايتم اللات
والعزى ومنات الثالثة الأخرى فألقى الشيطان على لسانه وهى الغرائقة
العالى وشفاعتهم ترجى فلما فرغ منها سجد رسول الله ﷺ
والمسلمون والمشركون إلا أبا أحبيحة سعيد بن العاص أخذ كفا من
تراب وسجد عليه وقال قد آن لابن أبى كبشة أن يذكر آلهتنا بخير
حتى بلغ الذين بالحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ من المسلمين أن
قريشاً قد أسلمت فاشتد على رسول الله ﷺ ما ألقى الشيطان على
لسانه فأنزل الله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلى آخر

الآية حدثنا ابن بشار قال ثنا محمد بن جعفر قال ثنا شعبة عن أبي بشر
عن سعيد بن جبير قال لما نزلت هذه الآية أفرايتم اللات والعزى قرأها
رسول الله ﷺ فقال تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى فسجد
رسول الله ﷺ فقال المشركون انه لم يذكر آلهتكم قبل اليوم بخير
فسجد المشركون معه فأنزل الله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا
نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته إلى قوله عذاب يوم عقيم
حدثنا ابن المنني قال ثنى عبد الصمد قال ثنا شعبة قال ثنا أبو بشر عن
سعيد بن جبير قال لما نزلت أفرايتم اللات والعزى ثم ذكر نحوه
حدثني محمد بن سعد قال ثنى أبي قال ثنى أبي عن أبيه عن ابن عباس
قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى
الشيطان في أمنيته إلى قوله والله عليم حكيم وذلك أن نبي الله ﷺ
بينما هو يصلى إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب فجعل يتلوها فسمعه
المشركون فقالوا إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير فدنوا منه فبينما هو يتلوها
وهو يقول أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان
أن تلك الغرائيق العلى منها الشفاعة ترتجى فجعل يتلوها فنزل جبرائيل
عليه السلام فنسخها ثم قال له وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا
نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته إلى قوله والله عليم حكيم
حدثت عن الحسين قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد قال سمعت
الضحاك يقول في قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الآية
أن نبي الله ﷺ وهو بمكة أنزل الله عليه في آلهة العرب فجعل يتلو
اللات والعزى ويكثر ترديدتها فسمع أهل مكة نبي الله يذكر آلهتهم
ففرحوا بذلك ودنوا يستمعون فألقى الشيطان في تلاوة النبي ﷺ

تلك الغرائيق العلى منها الشفاعة ترتجى فقرأها النبي ﷺ كذلك
فأنزل الله عليه وما أرسلنا من قبلك من رسول إلى الله عليم حكيم
حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني يونس عن ابن شهاب
أنه سئل عن قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الآية قال
ابن شهاب ثنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث أن رسول الله
ﷺ وهو بمكة قرأ عليهم والنجم إذا هوى فلما بلغ أفرايم اللات
والعزى ومناة الثالثة الأخرى قال ان شفاعتهن ترتجى وسها رسول الله
ﷺ فلقى المشركون الذين في قلوبهم مرض فسلموا عليه وفرحوا
بذلك فقال لهم إنما ذلك من الشيطان فأنزل الله وما أرسلنا من
قبلك من رسول ولا نبي حتى بلغ فينسخ الله ما يلقي الشيطان فتأويل
الكلام ولم يرسل يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم ولا
نبي محدث ليس يرسل إلا إذا تمنى واختلف أهل التأويل في معنى قوله
تمنى في هذا الموضع وقد ذكرت قول جماعة ممن قال ذلك التمنى من
النبي ﷺ ما حدثته نفسه من محبته مقاربة به قومه في ذكر آلهتهم
ببعض ما يحبون ومن قال ذلك محبة منه في بعض الأحوال أن لا تذكر
بسوء . وقال آخرون بل معنى ذلك إذا قرأ وتلا أو حدث ذكر من
قال ذلك حدثني علي قال ثنا عبد الله قال ثنى معاوية عن علي عن ابن
عباس قوله إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته يقول إذا حدث ألقى
الشيطان في حديثه حدثني محمد بن عمرو قال ثنا أبو عاصم قال ثنا
عيسى وحدثني الحرث قال ثنا الحسن قال ثنا ورقاء جميعاً عن ابن
أبي نجيح عن مجاهد قوله إذا تمنى قال إذا قال حدثنا القاسم قال ثنا
الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج عن مجاهد مثله حدثت عن

الحسين بن الفرج قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول في قوله إلا إذا تمنى يعنى بالتمنى التلاوة والقراءة وهذا القول أشبه بتأويل الكلام بدلالة قوله فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته على ذلك لأن الآيات التى أخبر الله جل ثناؤه أنه يحكمها لا شك أنها آيات تنزيله فمعلوم بذلك أن الذى ألقى فيه الشيطان هو ما أخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله ثم أحكمه بنسخه ذلك منه فتأويل الكلام إذا وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تلا كتاب الله وقرأ أو حدث وتكلم ألقى الشيطان فى كتاب الله الذى تلاه وقرأه أو فى حديثه الذى حدث وتكلم فينسخ الله ما يلقي الشيطان يقول تعالى فيذهب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله كما حدثنى على قال ثنا عبد الله قال ثنى معاوية عن على عن ابن عباس فينسخ الله ما يلقي الشيطان فيبطل الله ما ألقى الشيطان حدثت عن الحسين قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول فى قوله فينسخ الله ما يلقي الشيطان نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبى ﷺ وأحكم الله آياته وقوله ثم يحكم الله آياته يقول ثم يخلص الله آيات كتابه من الباطل الذى ألقى الشيطان على لسان نبيه والله عليم بما يحدث فى خلقه من حدث لا يخفى عليه منه شئ حكيم فى تدبيره إياهم وصرفه لهم فيما شاء وأحب القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد﴾ يقول تعالى ذكره فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته كى يجعل ما يلقي الشيطان فى أمنية

نبيه من الباطل كقول النبي ﷺ تلك الغرائق العلي وان شفاعتهن لترتجى فتنة يقول اختباراً يختبر به الذين في قلوبهم مرض من النفاق وذلك الشك في صدق رسول الله ﷺ وحقيقة ما يخبرهم به وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا ابن عبد الأعلى قال ثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة أن النبي ﷺ كان يتمنى أن لا يعيب الله آلهة المشركين فألقى الشيطان فى أمنيته فقال ان الآلهة التى تدعى أن شفاعتها لترتجى وأنها للغرائق العلي فنسخ الله ذلك وأحكم الله آياته أفرأيت اللات والعزى حتى بلغ من سلطان قال قتادة لما ألقى الشيطان ما ألقى قال المشركون قد ذكر الله آلهتهم بخير ففرحوا بذلك فذكر قوله ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة بنحوه حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنا حجاج عن ابن جريج فى قوله ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض يقول وللذين قسب قلوبهم عن الإيمان بالله فلا تلين ولا ترعوى وهم المشركون بالله وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج والقاسية قلوبهم قال المشركون وقوله وإن الظالمين لفى شقاق بعيد يقول تعالى ذكره وان مشركى قومك يا محمد لفى خلاف لله فى أمره بعيد من الحق . القول فى تأويل قوله تعالى ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ يقول تعالى ذكره وكى يعلم أهل العلم بالله أن الذى أنزله الله من آياته التى أحكمها لرسوله ونسخ ما ألقى

الشيطان فيه أنه الحق من عند ربك يا محمد فيؤمنوا به يقول فيصدقوا به فتخبت له قلوبهم يقول فتخضع للقرآن قلوبهم وتدعن بالتصديق به والاقرار بما فيه وأن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم وأن الله لمرشد الذين آمنوا بالله ورسوله إلى الحق القاصد والحق الواضح بنسخ ما ألقى الشيطان في أمنية رسوله فلا يضرهم كيد الشيطان والقائه الباطل على لسان نبيهم . وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك قال يعنى القرآن القول في تأويل قوله تعالى ﴿ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيم الساعة بغته أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ يقول تعالى ذكره ولا يزال الذين كفروا بالله في شك ثم اختلف أهل التأويل في الهاء التي في قوله منه من ذكر ما هي فقال بعضهم هي من ذكر قول النبي ﷺ تلك الغرائيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ذكر من قال ذلك حدثنا ابن بشار قال ثنا محمد قال ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير ولا يزال الذين كفروا في مرية منه من قوله تلك الغرائيق العلى وان شفاعتهن لترتجى حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد في قوله ولا يزال الذين كفروا في مرية منه قال مما جاءك به إبليس لا يخرج من قلوبهم زادهم ضلالة . وقال آخرون بل هي من ذكر سجود النبي ﷺ في النجم ذكر من قال ذلك حدثنا ابن المثنى قال ثنا عبد الصمد قال ثنا شعبة قال ثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير ولا يزال الذين كفروا في مرية منه قال في مرية من سجودك . وقال آخرون بل هي من ذكر القرآن ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج ولا يزال الذين كفروا في مرية منه قال من القرآن .

فهرست الكتاب

كلمة عن الحوار ٥ - ١٦

كتاب « السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » النقد الذى أثاره الكتاب . ترحيب صحيفة الأهالى . أسلوب الحوار بين المسلمين .

الفصل الأول : ١٧ - ٥٢

تصيد غرائب الحديث . منهاجان فى التعامل مع الحديث . حديث الغرائق معجزة إسلامية . إلقاء الشيطان فى أمنية الأنبياء . والله يحكم آياته .

الفصل الثانى : ٥٣ - ٨٦

الهجوم على العرب . أين فى غير العرب مثل قصة عنترة وعبلة ؟ الوطنية والإسلام . الحديث الصحيح السند لا يقبل الطعن . موسى وملك الموت وقضايا الساعة . دية المرأة وانسانيتها . غض الطرف عن ماذا ؟ من يسجن المرأة ؟ ضرب الزوجة .

الفصل الثالث : ٨٧ - ١٢٤

حديث السحر . التشكيك فى الحديث تشكيك فى الآية . مبادئ رائعة من عدالة الإسلام . رأى الشيخ الشعراوى فى حديث السحر . حديث الذبابة . تكون الجنين . الرسول أكمل البشر قاصر أمام كمال السماء . التماثيل والأصنام رأى جديد . خطأ الحديث فى القضاء والقدر . نص رواية الطبرى لحديث الغرائق .

من منشوراتنا

احفظ اللمسات

المنجى المراج في
نواب العمل الصالح

خرج أحاديثه
عبد الله بن نجاة

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية، عابدين ت ٠ ٣٩١١٣٩٧

من منشوراتنا

جَهَالَاتُ عَصْرِ النُّبُوَّةِ

قراءة في فكر قاسم أمين وعلى عبد الرازق

محمّد جلال كشك

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية، عابدين ت ٣٩١١٣٩٧

من منشوراتنا

اشيخ اشعر اوى

من الفسرة الى العالمة

جمع واعداد

محمّد محجوب محمد حسن

مكتبة التراث الاسلامى

٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

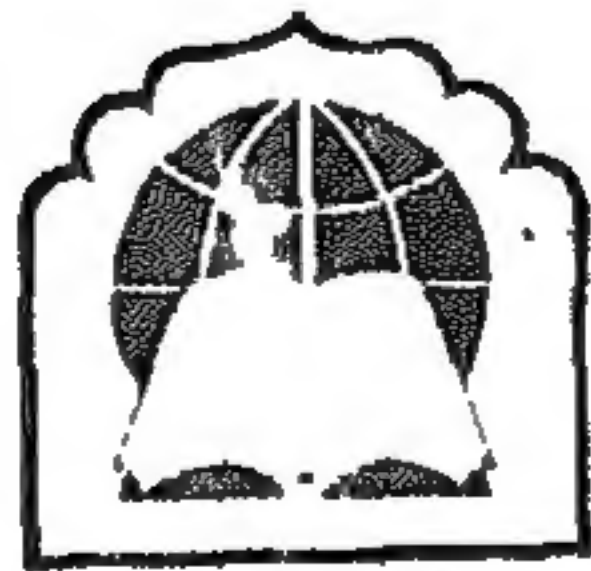
رقم الايداع : ٤٧٥٥ / ١٩٩٠

طبع بدار نوبار للطباعة



المُسْلِمُونَ وَالْمُزْمِنُونَ يَقْرَءُونَ مَصِيرَ الْعَالَمِ

محمد جلال كيشك



مكتبة التراث الإسلامي

ت : ٣٩١١٣٩٧ - ٣٩٢٥٦٧٧ - فاكس : ٣٩١٣٤٠٦